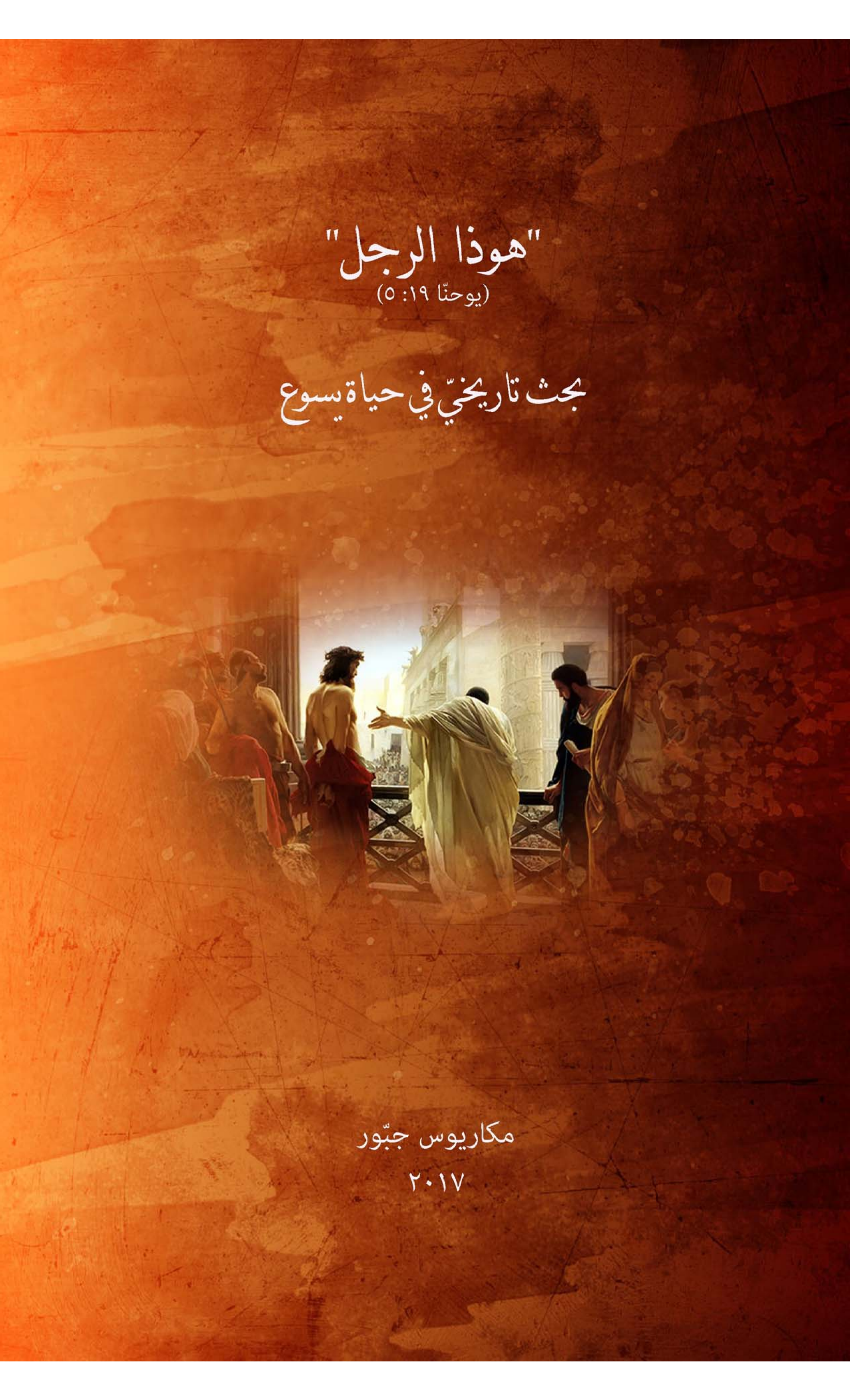


"هوذا الرجل"

(يوحنّا ١٩: ٥)

بحث تاريخيّ في حياة يسوع

مكاريوس جبّور

٢٠١٧

"هوذا الرجل"
(يوحنّا ١٩: ٥)

بحث تاريخيّ في حياة يسوع

مكاريوس جبّور

٢٠١٧

الطبعة الأولى

٢٠١٧

مقدّمة

يرجع التفكير بإنجاز مثل هذا العمل إلى أكثر من عشر سنوات، وتحديدًا إلى الفترة التي كنت فيها لا أزال أمارس التعليم الأكاديمي، واللقاءات مع الشبيبة، والمحاضرات التاريخيّة منها والدينيّة. وقد كانت أسئلة كثيرة، تُطرح عليّ، منها الصعب ومنها السهل، وكنتُ أُجيب بما توفّر لديّ من معلومات أخذتها من مطالعاتي وأبحاثي.

واشتّدت عزيمتي لإنجاز مثل هذا العمل، بعد أن نقلتُ إلى العربيّة كتاب الأرشمندريت الراحل ألكسندر مان بعنوان "يسوع معلّم الناصرة"، وقد ظهر في منشورات النور الغرّاء، في الجمهوريّة اللبنانيّة، وحاز على استحسان الكثيرين.

بدا الأمر معقّدًا جدًّا، لأنّي، على عكس طبعي، لم أبدأ بعمل منهجيّ في البحث والقراءة والتنقيب، إنّما رحتُ أجمع من هنا فكرة ومن هناك معلومة، وكنتُ أضعها جانبًا وأذهب للتفتيش عن غيرها.

وشاءت الظروف أن أنتقل إلى حلب، وأن أعيش وسط أزمة حرب مخيفة، منعتني من إنتاج أيّ عمل فكريّ يُذكر باستثناء مقالتَين أو ثلاثة.

وعندما طُلب منّي إعطاء مادة تاريخ الكنيسة في حلب، استيقظ الحلم من سباته، ورأيتني أنتهز الفرصة تلو الأخرى لأُعيد قراءة ما كنت قد جمعته في السابق، وكم من معلومات كانت بحاجة إلى العودة إلى المراجع التي استقيتها منها!

وبعد سنوات من ألم الحرب، وجدتني أمام قرار يجب اتّخاذه: أأنهي ما حلمت به، أم أنسى ما أمضيته من ساعات وأيام أقرأ وأُفتّش وأُدوّن وأجمع؟ وكان القرار.

ولا بدّ لي من القول إنّ هذا العمل بمجمله هو اجتهاد شخصيّ لأنّي محّصت كثيرًا المراجع التي قرأتها أو استندت إليها، فقيّمتها انطلاقًا من خبرتي في مجال التاريخ، وتبنّيت منها ما هو موافق لقناعاتي، علمًا بأنّ مراجع كثيرة قد وضعها مؤرّخون ثقة. ومن بين هذه المراجع مؤلّفات الدكتور دافيد دونّيني (David Donnini) الذي أحترم كثيرًا، وتربطني به مراسلات واستشارات، ولكنّي لا أوافقه الرأي في كثير من طروحاته.

ما الذي أُقدّمه في هذا العمل؟

الغاية من هذا العمل تاريخيّة بحت، ولا مكان فيها للتعبير عن الإيمان الشخصيّ لا من قريب ولا من بعيد. وينصبّ العمل على الإطار التاريخيّ لحياة يسوع بدون البحث في ألوهيّته وتأويل معجزاته وتفسير أقواله روحيًّا وأخلاقيًّا أو حتّى لاهوتيًّا.

ولا بدّ لي من تنبيه القارئ الكريم إلى أنّ محتويات هذا العمل لا تشمل جميع حيثيّات الرواية التاريخيّة ليسوع في الأناجيل، إنّما تعرض المشكلات التاريخيّة التي تمكّن العلم الحديث

بمختلف فروعه من كشف النقاب عنها. وبالتالي لست أُقدّم رواية إنجيليّة موضوعة في إطار تاريخيّ كامل وشامل، فالأمر ليس بالسهل أبدًا. وجلّ ما يحتوي هذا العمل ما هو إلاّ محاولة إعطاء أجوبة على عدد من الأسئلة التي يطرحها أيّ قارئ للأناجيل. كما إنّي لست لأناقش موضوع تاريخيّة أسفار العهد الجديد، فهذا من اختصاص أساتذة الكتاب المقدّس.

منهجيّة العمل

يبدأ العمل باستعراض تاريخيّ للأطُر السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي سبقت ولادة يسوع واستمرّت خلال فترة حياته، وهو على شكل فصول مقسّمة بحسب التسلسل الزمنيّ للملوك والولاة والشخصيّات التي عاشت في تلك الحقبة وكان لها التأثير المباشر أو غير المباشر على الأحداث. وهنا يجد القارئ أجوبة على بعض من أكثر النقاط صعوبة، ودومًا بقدر ما توفّرت لديّ المراجع التاريخيّة.

أمّا العمل ككلّ، فهو في عشرة فصول.

الفصلان الأوّل والثاني: أُلخّص بهما قناعاتي، وهما اجتهاد شخصيّ.

الفصل الثالث: وهو قراءة وصياغة شخصيّة بنيتها على المراجع التالية:

Bloch Gustave, **L'empire romain évolution et décadence**, Paris, 1922.

Goyau Georges, **Chronologie de l'Empire romain**, Nouvelle collection à l'usage des classes XVII, Librairie C. Klincksieck, Paris, 1891.

إيمار أندريه وأوبوايه جانين، **روما وإمبراطوريّته**، موسوعة تاريخ الحضارات العام بإشراف موريس كروزيه، المجلّد الثاني، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1986. نقله إلى العربيّة فريد م. داغر وفؤاد ج. أبور يحان.

لورو باتريك، **الإمبراطوريّة الرومانيّة**، سلسلة نصوص، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، 2008. ترجمة الدكتور جورج كتّورة.

الفصل الربع: وهو أيضًا قراءة وصياغة شخصيّة بنيتها على المراجع التالية:

Graetz Heinrich, **Histoire des Juifs**, vol. 1, Copie Internet François-Dominique Fournier, 2004. Traduit de l'allemand par Wogue et Bloch.

Vigouroux Fulcran Grégoire, **Dictionnaire de la Bible**, contenant tous les noms de personnes, de lieux, de plantes, d'animaux mentionnés dans les Saintes Écritures, les questions théologiques, archéologiques, scientifiques, critiques, relatives à l'Ancien et au Nouveau Testament, V vol. Letouzey et Ané, Paris, 1895–1912.

Flavius Josèphe, **La Guerre des Juifs**, précédé de "Du bon usage de la trahison" par Pierre Vidal-Naquet, Collection Arguments, Les éditions du minuit, Paris, 1977. Traduit du grec par Pierre Savinel.

Flavius Josèphe, **Antiquités Judaïques**, Québec, 2015. Par Samizdat.

الفصل الخامس: فيه الكثير من الاجتهاد الشخصي، ومعلوماته الأساسيّة مأخوذة من "Dictionnaire de la Bible" الآنف الذكر.

أمّا الفصول السادس إلى التاسع فهي مبنيّة على أساس الكتاب:

Donnini David, **Cristo una vicenda storica da riscoprire**, Roberto Massari Editore, Italia, 1994.

ولكنّي لا أوافق على كثير من أفكاره ومعطياته، وقد دقّقت كلّ فكرة واردة فيها وعدت إلى مراجع كثيرة، موجودة في لائحة المراجع آخر الكتاب، وجاءت كخلاصة لقناعاتي بعد بحث طويل. أخيرًا، الفصل العاشر فهو مأخوذ من مراجع تاريخيّة عدّة.

خلاصة القول، لم يُقدّم الإنجيليّون كتابًا تاريخيًّا يروي قصّة حياة يسوع، إنّما احتوى على خبرة روحيّة تمّ مزجها في بنية النصّ السرديّة، ولا من العدل بمكان قراءة النصوص الإنجيليّة من زاوية تاريخيّة محض، كما ليس من الجائز قراءتها من زاوية روحيّة أو تأويليّة وتفسيريّة محض.

أتقدّم بالشكر العميق لصاحب السيادة المطران يوسف طوبجي رئيس أساقفة حلب للموارنة على مراجعته مسوّدة العمل وإبداء رأيه، كما أشكر كلّ من الأستاذ وحيد قاشو والدكتور ديمتري جبّور على آرائهما. ولا بدّ لي من شكر الصديق الأستاذ جان كلش على الآراء السديدة التي قدّمها بكلّ دقّة ومحبّة.

الفصل الأوّل
استجابة الله لبحث الإنسان

بدأت القصّة غريبة في شكلها ومضمونها، غير أنّها متقاربة في أشكالها وأساليبها وطروحاتها: بدأ البشر يبحثون عن الله، وامتدّ بحثهم عنه أجيالاً.

حضارات عديدة تشابه فيها أسلوب البحث عن الله، والتقتْ فيها الفكرة مع الفكرة، ونمط التفكير مع نمط التفكير.

ارتقى الفكر البشريّ في بحثه عن الله، وبدأ يبلغ ذروته نحو القرن السادس عشر قبل ولادة يسوع على أرض البشر.

من بلاد ما بين النهرين، حيث استطاع الأكاديّون والأشوريّون، في بحثهم عن الله، التوصّل إلى التفكير بالحياة والموت، والدنوّ من عقيدة الخلق ونشأة الحياة. فكانت ملحمة غلغامش، وجاءت قوانين حمورابي التي وضعتْ الأسس الأخلاقيّة الواجب على الإنسان اتّباعها في حياته على الأرض.

إلى مصر حيث جسّد الإله أوزريس نواة فكرة التقاء الأرض بالسماء، وبذرة اتحاد البشر بالآلهة، وارتباط المُلك بتأليه البشر. ونما الفكر، خلال القرون اللاحقة، ليصل إلى طرح فكرة نـزول الوحي على الملوك (الفرعون أمنوفيس الرابع). وصار مفهوم النور (الشمس) ضمن إطار الفكر الدينيّ المُعلَن. وكان الإيمان بحياة بعد الموت، والبحث عن مصير الناس بعد هذا القدَر الحتميّ. وصارت الأخلاق والمُثل موضع نقاش وحوار، وأُنتجتْ القوانين والكتب الأخلاقيّة. وتصدّر البحث عن مصير النفس تفكير الباحثين. ووضُعتْ هيكليّات وشعائر للعبادة وتكريم الآلهة والابتعاد عن الخطأ والارتقاء بالنفس نحو سموّ عالم الآلهة. مرورًا بالحثيّين الذين شابهوا الأكاديّين والأشوريّين والمصريّين في تأليه فكرة الشمس والنور وابتكار العبادات والطقوس.

إلى الفريجيّين (جزء من سكّان أوروبّا) الذين تأثّروا بحضارة بلاد ما بين النهرين، وكانوا الأساس في نشأت الفكر الليدي (الإغريقي لاحقًا). ومعهم الآريّون الذين أتوا من أوروبّا نحو بلاد فارس ونقلوا أنماط عيشهم وتفكيرهم، حتّى إنّ الاسكندر المكدونيّ عندما وصل إلى بلاد فارس، شعر وكأنّه في بلاده.

إلى الأوغاريتيّين والفينيقيّين واضعي الحرف وبحثهم عن المطلق.

تشابهت الحضارات في شكلها وأساليب ارتقاء فكرها، غير أنّها التقتْ في بحثها عن الله، ووصولها إليه واستجابته لبحثها عنه.

وامتزجت جميع هذه العناصر والأفكار لتُشكّل النواة الجدّيّة الأولى التي طرحت، ولأوّل مرّة، فكرة الثنائيّة التي انطلقت من بلاد فارس ووصلت إلى بلاد اليونان، وبلغت ذروتها مع المدرسة الأفلاطونيّة.

الخير والشرّ في صراع. عالم المثل والعالم الحقيقيّ. الثواب والعقاب. الحياة والموت، والعودة إلى حيث الحقيقة المطلقة، وصولاً إلى البحث عن سبيل لخلاص البشر ممّا يعيشونه على الأرض من أخطاء ومظالم وفساد.

وإذا ما تأمّل الباحث في سِيَر الأنبياء الذين مهّدوا لمجيء يسوع المسيح، وتابع ترحالهم، من إبراهيم إلى موسى، ومن أشعيا إلى يوحنّا المعمدان، يكتشف أنّهم مرّوا على كثير من هذه الحضارات وتأثّروا بها واختلطوا بشعوبها وتزاوجوا ببناتهم أو أبنائهم.

مُهّد الطريق، وكان حدث الاسكندر العظيم المكدونيّ الذي وحّد هذه الحضارات ضمن رقعة جغرافيّة واحدة تخطّتْ حدود البحر الأبيض المتوسطّ لتصل إلى الهند، وجمعتْ لغة رسميّة رئيسة بين شعوبها، وأسهمت في وصول الفكر الأثينائيّ إلى أرجاء المعمورة. مثلاً، اختلطت نبوءات أنبياء العهد القديم مع نبوءات كبار الفلاسفة من زرادشت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو، وصولاً إلى مفكّري العالم الرومانيّ الذي في ربوعه شهد العالم ولادة يسوع المسيح، أمثال كراتيبّوس(١) (Cratippus)، وأبولونيوس الطواني(٢) (Appolonius de Tyan) ، وإفدوروس الإسكندري(٣) (Evdorus d'Alexandrie) ...

وولد يسوع!

(١) Κράτιππος، أصله من برغامو (Pergamo) في آسيا الصغرى. عاش في النصف الثاني من القرن الأوّل قبل الميلاد والنصف الأوّل من القرن الأوّل الميلادي، وكان لا يزال في آثينا سنة 44 ميلاديّة. اشتهر بكتابته عن التأليه.

(٢) ولد نحو سنة 16 قبل الميلاد في تيان (Tyan) الكبادوك، وتوفّي في أفسس نحو سنة 97 أو 98 ميلاديّة. كان فيلسوفًا فيثاغوريًّا محدثًا. اعتبره تلاميذه مشابهًا للمسيح.

(٣) ولد في الاسكندريّة. وأسّس، سنة 40 قبل الميلاد، لمدرسة الفيثاغويّة المحدثة، وتوفّي في القرن الأوّل الميلادي.

الفصل الثاني
انتظار شبه كونيّ لمجيء أمير سلام

قيل الكثير عن يسوع المسيح وكُتب الكثير أيضًا، وممّا قيل:

إنّه أمضى طفولته في الهند أو التيبت يتعلّم.

إنّ المسيحيّة ألبست ثوب البوذيّة على شخص المسيح.

إنّ المسيحيّة ألبست ثوب الزرادشتيّة على المسيح.

إنّ المسيحيّة تهوّدت.

إنّ المسيحيّة تهلينت، وألبست المسيح ثياب الدمييورغوس(٤) الأفلاطونيّ على شخص يسوع، وذلك عن طريق تركيب محاورة تيماوس(٥) الأفلاطونيّة على يسوع المسيح.

وقيل إنّ العالم عرف عشرات "مسيح" قبل يسوع المسيح.

أُجيب على هذه الأقاويل:

حتّى لو وجدتْ تشابهات بين مختلف الحضارات في وصف شخصيّة رجل استثنائيّ، فهذا لا يعني أنّ الجميع متّفق على تحديد هويّته عقائديًّا ولاهوتيًّا. وهناك مفارقات عديدة بين هذا النصّ وذاك، ناهيك عن المسافات الزمنيّة المتباعدة. أضف إلى ذلك أنّ عدد النصوص الموجودة في كتاب العهد القديم أشمل وأوسع.

من ناحية المنهج العلميّ لكتابة التاريخ، يجب الإقرار بأنّ المنطق يحتمّ قراءة التاريخ بالتسلسل الزمنيّ، لا العكس، وحتّى لو وجدتْ بعض الاستثناءات فهي لأسباب علميّة ومنهجيّة. وإذا قبلنا بفرضيّة أنّ المسيحيّة قد استعملتْ ما جاء في هذه الحضارات وطبّقتها على شخص يسوع المسيح، نضع أنفسنا أمام استنتاجَين إلزاميَّين: الأوّل، هو التسليم بشيء من الوحي في النتاج الروحيّ لمختلف هذه الحضارات، وهذا يعني تساوي جميع الديانات من حيث نـزول الوحي عليها. الثاني، نـزعُ صفة الوحي عن كتب العهد القديم، وهذا يؤدّي حتمًا إلى نـزع هذه الصفة عن الإنجيل، وهذا منافٍ لتعاليم المسيحيّة، ويؤدّي حتمًا إلى نـزع صفة الوحي عن الإسلام أيضًا.

كباحث متواضع يُقرّ بمحدوديّته، أستطيع القول إنّ اجتماع النتاج الروحيّ لمختلف الحضارات حول فكرة "مجيء أمير للسلام" ينتشل العالم من وهدة الظلام والخطيئة والشرّ، والتقارب الشديد في وصف طريقة مجيئه، وتوقّف البحث عن هذا الأمير بعد مجيء يسوع المسيح... يدلّ على:

---

(٤) Δημιουργός.

(٥) Τίμαιος.

حاجة البشريّة إلى أمير للسلام.
انتفاء هذه الحاجة بعد مجيء يسوع المسيح.
ولم يُعطنا أحد أجوبة مقنعة على هذَين السؤالين.
سأضع الآن بعض النصوص المتشابهة في وصفها لمجيء أمير السلام وتطابقها مع مجيء يسوع المسيح.

أوّلاً: أفِستا، أو الكتاب المقدّس لزرادشت(٦)
(عاش رزادشت نحو ٦٦٠-٥٨٣ قبل الميلاد)
اختبار زرادشت، ٣٠(٧).

"هنا تأتي عذراء رائعة، ذات قامة ممشوقة، منتعشة، طويلة، ترافقها القداسة، الحقيقة والسلطة العظيمة. تُسقط هذه العذراء الأرواح الشريرة للناس السيّئين في الظلام. أمّا أرواح الناس الأتقياء فتأتي إلى سلطتها في الطرف الثاني، على جبل هارابيرزايتي العالي. تقود هذه المرأة الصالحين عبر جسر جينفات، وتلحقهم بملائكة أليازاد السماويّين".

الفصل الثالث، كيف سيُعاد بناء الإيمان، الأمير فارهان فَرزَند، ١٣-١٥، ١٧(٨)،

١٣- "عندما يظهر الأبالسة الشعث، وليدَي الأهوال من الشرق، ستظهر علامة ظلماء، وسيولد أورسيدار ابن زرادشت، من بحيرة فرازدان".

١٤- "وسيعرفني أنا أورمازد، يا زرادشت سبيتما! بالقرب من جينيسيان، سيولد الأمير كاي أبوه حاكم الشعب الكيانيدي، سيقترب من امرأة ستُنجب الحاكم الديني المستقبلي، وسيُعطيه اسم فارهران فَرزَند الذي سيُسمّونه أيضًا شابور".

١٥- "وفي ليلة مولده ستعطي النجوم العلائم التي تُعلن قدومه".

- "وعندما تتقرّب كوكب أورمازد جوبيتر (المشتري) نحو مكانه بَشوق (في جلد السماء) وكوكب آناهيدا وفينوس (الزهرة) من مكان سقوطها، عندئذ سيستلم الملكُ السلطة".

عن عصر أوشيدار، ٤٣(٩).

٤٣- "كما هو معلوم عن أوشيدار إنّه سيولد في سنة ١٦٠٠، وفي الثلاثين من عمره سيُقيم علاقة متينة معي أنا أورمازد، وسيتعمّق في الدين كمؤمن مُخلِص".

---

(٦) أفِستا، الكتاب المقدّس للديانة الزرادشتيّة، الطبعة الثانية، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠٠٨، ترجمة وإعداد الدكتور خليل عبد الرحمن.

(٧) المرجع السابق، صفحة ٧٢٤.

(٨) المرجع السابق، صفحة ٧٤٢.

(٩) المرجع السابق، صفحة ٧٤٦.

ثانيًا: أناشيد بوذا أو ما عُرف بإنجيل بوذا(١٠)

لم يكن انتظار رجل السلام حِكرًا على الفرس وحدهم، فها هو أقصى الشرق ينتظره.

الفجر والإصباح، في أسوار وميامر، ٤-٨(١١).

٤- "في ذلك الصباح الخريفيّ الجميل، راحت مایاشفي تروي لزوجها حلم ليلتها الراحلة: رأت في منامها العذب أنّ الله حلّ في أحشائها في شكل فيل أبيض كالفضّة، مسربل بهالة بهيجة من الذهب الوهّاج، ويحمل في خرطومه زهرة لوطس ريّانة. ثمّ دون أن يُقرع الباب، دخل غرفتها أربعة ملوك ورفعوها برفق وعناية حتّى خُيّل لها أنها تنام على مخدّة من الغيوم...".

٥- "ودعا الأمير السحرة وكبار المنجّمين كي يفتونه عن ذلك الحلم العجيب. وقال كبيرهم للأمّ: لا تقلقي سوف تلدين ابنًا يحكم الأرض، ويُسيطر على نفوس البشر بالمحبّة والرأفة، ويكون ملك الملوك بالعطف والإلفة لا بالقوّة والجبروت...".

٦- "... ومضت شهور، وانقضى الربيع".

٧- "وعندما شعرت مایاشفي باقتراب موعد الوضع، رجت زوجها أن يسمح لها بالذهاب لمنـزل أهلها. وفي الطريق، في إحدى خمائل ضواحي قرية لومبيتي... شعرت بآلام الوضع. وفي خيمة من الأشجار التي تعانقت فورًا لتُظلّلها، وفوق بساط من الأعشاب التي شكلّت للسيّدة سريرًا وضعت الرائعة طفلها... كان الطفل جميلاً ذا سحر وروعة...".

٨- "وشاع النبأ السعيد بسرعة، وهرع الزوج لمشاهدة الأمّ، وكان برفقته أيضًا السحرة والمنجّمون".

ثالثًا: الكتاب المقدّس

في العهد القديم انتظار لمخلّص طال أمده، مع وصف لمسيرة ألمه مع البشر وقوّة الله عليه. أكتفي ببعض الشواهد، وأضعها بحسب تسلسلها في الكتاب المقدّس.

مزامير ٦٨ (٦٧)

"جعلوا في طعامي مرارة وفي عطشي سقوني خلاًّ".

أشعيا ٧: ١٤

"يؤتيكم السيّد نفسه آية: ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمّانوئيل...".

---

(١٠) مولا عليّ، بوذا، الموسوعة البوذيّة. لا وجود لاسم دار النشر وتاريخه. عاش بوذا نحو ٤٨٠ قبل الميلاد.

(١١) المرجع السابق، صفحة ٢٧٦-٢٧٧.

٤٢: ١-٣

"هوذا عبدي الذي أعضدُه، مختاري الذي سُرّت به نفسي، قد جعلتُ روحي عليه، فهو يُبدي الحكم للأمم. لا يصيح ولا يُجلب ولا يُسمع صوتُه في الشوارع. قصبة مرضوضة لا يكسر وكتّانًا مدخّنًا لا يُطفئ...".

٥٣: ٣-٥

"مزدرًى ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومتمرّس بالعاهات، ومثل ساترٍ وجهه عنّا. مزدرًى فلم نعبأ به. إنّه لقد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا فحسبناه ذا برص مضروبًا من الله ومذلّلاً. جُرح لأجل معاصينا وسُحق لأجل آثامنا...".

ميخا ٥: ٢

"وأنتِ يا بيتَ لحم أفراته، إنّك صغيرة في ألوف يهوذا، ولكن منكِ يخرج لي مَن يكون متسلّطًا على إسرائيل ومخارجه منذ أيام الأزل".

زكريّا ٩: ٩

"ابتهجي جدًّا، يا بنت صهيون، واهتفي يا بنت أورشليم، هوذا ملكك يأتيك صدّيقًا مخلصًا وديعًا، راكبًا على أتان وجحش ابن أتان".

١٣: ٧

"أيّها السيف استيقظ على راعيّ وعلى رجل أُلفتي يقول ربّ الجنود. اضرب الراعي فتتبدّد الخرفان، وأنا أردّ يدي على الصغار".

نستنج ممّا تقدّم أنّ ثمّة انتظار واسع لمجيء أمير للسلام ونبيّ عندما مختلف الشعوب والحضارات.

أهو يسوع المسيح؟

الفصل الثالث
الإمبراطوريّة الرومانيّة ما بين السنوات
٤٩ قبل الميلاد و٣٧ بعد الميلاد

أوّلاً: أوكتافيانوس صانع الجمهوريّة (٢٣ أيلول ٦٣ قبل الميلاد-١٩ آب ١٤ ميلاديّة)(١٢)

في ظروف تاريخيّة شديدة التعقيد كانت ولادة يسوع المسيح. فبعد زوال الإمبراطوريّة الإغريقيّة وتأسيس الإمبراطوريّة الرومانيّة، عاش حوض البحر الأبيض المتوسّط حقبات متقلّبة، شهد خلالها هذا العالم الجديد نوعًا جديدًا من المدنيّة التي لم تهدأ فيها النـزعات الداخليّة، ولا حتّى بعد وصول قسطنطين الكبير (٢٧٤-٣٣٧ ميلاديّة) إلى الحكم، وإعادته توحيدها. وتمثّل هذا الصراع بين الحكم المدنيّ والحكم العسكريّ، هذا الصراع الذي ذهب ضحيّته مئات الناس من مفكّرين وعسكريّين، وتمثّل كذلك في الانقلابات العسكريّة من جهة، وسيطرة بعض الأُسر على نظام الحكم من جهة أخرى.

ووصلتْ الإمبراطوريّة إلى السلام بعد حروب داخليّة طاحنة مهّدت الطريق أمام نهضة اجتماعيّة واقتصاديّة وفكريّة. فكيف تتابعت الأحداث؟

بعد حوالي ألفين وخمسمائة سنة من حكم الفراعنة،

وبعد أربعة قرون من ازدهار الحضارة الإغريقيّة،

وبعد ثلاثمائة سنة تقريبًا من ابتكار الإسكندر المكدونيّ (٣٥٦-٣٢٣ قبل الميلاد) للمزج الحضاريّ، وتأسيسه أعظم إمبراطوريّة عرفها التاريخ،

في إحدى ضواحي روما، أبصر نور العالم غايوس يوليوس أوكتافيانوس أوغسطس (٢٣ أيلول ٦٣ قبل الميلاد-١٩ آب ١٤ بعد الميلاد).

طفلٌ سيحمل يومًا ما لقب أوغسطس، وهو أرفع لقب في الإمبراطوريّة. والغريب في أمر هذا الطفل يكمن في سرعة تأليف الأساطير حول شخصه.

انتمى أوكتافيانوس إلى أسرة زراعيّة راقية في الحسَب والنسَب، وقد سبق لوالده أن انخرط في الجيش، وعلا شأنه ليُصبح أحد قوّاد الجيش.

ذكرت إحدى تلك الأساطير أنّ والده حمله رضيعًا، وتوغّل في إحدى الغابات حيث التقى بالكهّان، وتضرّع للآلهة طالبًا معرفة ما الذي تخفيه الأقدار لابنه. وكعادة تلك العصور، قـــدّم

(١٢) Gaius Iulius Caesar Octavianus Augustus.

الوالد ذبيحة للآلهة. وما أن أضرم النار فيها حتّى ارتفعتْ ألسنِة اللهب إلى السماء. وهو مشهد حصل مرّة واحدة في التاريخ مع الاسكندر المكدونيّ، وحدث ثانية مع أوكتافيانوس. وإذا ما دلّ على شيء، فهو يدلّ على رفعة شأن صاحبه.

لم يتأخّر الكهّان في تفسير الظاهرة، وأخبروا الوالد أنّ طفله هذا سيحكم العالم يومًا ما.

تناقلتْ الأجيال هذه الأسطورة شفهيًّا قبل أن يتمّ تدوينها مع نهاية القرن الأوّل الميلاديّ.

مرّ الزمان بخطاه المعهودة، ونما الطفل وسط أسرة وسكّان منطقة اشتهرتْ بالزراعة.

لم تكن أسرته معروفة قبل وصول أحد أفرادها للحكم وهو يوليوس قيصر(١٣) (١٠١ أو ١٠٠ قبل الميلاد-٤٤ ميلاديّة). ذكر بعض المؤرّخين أنّه جدّه، وقال آخرون إنّه عمّ والده أو خاله.

مرّت أربعة سنوات والطفل ينمو تحت أنظار والده ورعايته. غير أنّ ما كتمه الكهّان عن الوالد، لا يمكن للأحداث التاريخيّة أن تُسدل الستار عليه. فقد ترعرع الطفل في أجواء حروب أهليّة ضروس، شاهد خلالها القتل والدمار والحريق، واكتملتْ فصولها بوفاة والده.

ترك كلّ ذلك أثرًا بالغًا في نفس الصبيّ الذي تيتّم في سنّ مبكّرة.

إنّه صراع القوى بين طبقة الأغنياء والفقراء، والنبلاء والقادة، وكلٌّ يسعى لنيل نفوذ أكبر والوصول إلى الحكم.

سنوات من الاقتتال الدامي على النفوذ والسلطة قلبتْ مصير هذا الفتى رأسًا على عقب، وعلّمته أن يقرأ الواقع ويميّز الأحداث والوجوه. وبعد أن كان المكدونيّ قد أرسى دعائم الديمقراطيّة في أرجاء إمبراطوريّته التي احتاجت إلى أجيال كي تستقرّ على أسسها، رأى أوكتافيانوس تلاشي هذه الديمقراطيّة أمام عينيه. فلم يوفّر الفتى جهدًا في الاطلاع على شهادات الأقدمين ممّن تغنّوا بها، واكتسب الكثير.

سقط كثيرون من الأبرياء ضحايا حروب الباحثين عن النفوذ، وهو من بينهم، ووجب عليه الاعتماد على ذاته بدون وجود أب يرعاه ويُربّيه.

ويصعبُ الكلام عن السنوات التي عاشها بعد موت والده وعن التنشئة التي حصل عليها. غير أنّ ملامح شخصيّته سرعان ما ظهرت ميزاتها: ذكاء حاد، وسرعة بديهة وقوّة عزيمة. واتّسمت قامته بالضخامة والعضلات المفتولة.

لم يُكذّب القدر نبوءة الكهّان، وتدخّل بحياته وهو في الثالثة عشرة من عمره. إنّنا في السنة التاسعة والأربعين قبل الميلاد، سنة الحظّ الذي هبط من السماء فجأة ليُحوّل حياة هذا اليافع ويوجّهها في درب مختلف.

---

(١٣) Gaius Iulius Caesar.

في هذه السنة تمكّن قريبه غايوس يوليوس من الانتصار في إحدى المعارك، ودخل روما وسيطر عليها، وأصبح قائدًا لقوّة في تعاظم مطّرد. ولُحسن حظّ الشابّ اليتيم أنّ هذا القائد كان يحفظ لقريبه الراحل كلّ مودّة وصداقة.

دخل غايوس يوليوس روما وأُعلن فيها قيصرًا. وكانت عاصمة الغد أشبه بشابّ مراهق لم يبلغ سنّ النضج بعد. هذا لا يعني أنّها لم تكن منظّمة، ولا يعني أنّها لم تكن تسيطر على أصقاع كثيرة من حوض البحر الأبيض المتوسّط، باستثناء منطقتَي الشرق ومصر اللتَين كانتا لا تزالان تحت سيطرة أبنائهما. غير أنّ هذه المملكة الفتيّة لم تكن قد عرفت بعدُ أن تقرأ الوقائع والأحداث، وأن تتفاعل مع مختلف شعوب المنطقة وأعراقها. ولم يكن جيشها منظّمًا بما يكفي ليُعمّم الأمان والسلام في الربوع، خاصّة بعد أن أضعفت سنوات الحروب المتواصلة بُنية الدولة. وكانت قبائل بلاد الشمال لا تزال تهدّد الحدود الشماليّة، وأعداء روما في الشرق ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض عليها، ومقاطعة إسبانيا تحاول الاستقلال. أسرع غايوس يوليوس في بسط نفوذه وإرسال جيوشه لحماية حدود المملكة من أقصاها إلى أقصاها، ونجح خير نجاح. فقد أظهر، في كلّ مكان وتصرّف، حكمة وشجاعة. ولكن مَن يعرف دواخل قلوب البشر، يُدرك تمامًا أنّ ثمّة حرقة تحفر قلبه! لم يُنجب غايوس يوليوس ابنًا يرثه. فهل سيكون أوكتافيانوس ابنًا بديلاً ووارثًا شرعيًّا للملك؟

سبق للكهّان أن أعطوا جوابًا على هذا السؤال. انخرط أوكتافيانوس في صفوف الجيش، ولمع بقوّته ونشاطه وحدّة ذكائه، ولفتَ أنظار قريبه الذي سرعان ما بعث به على رأس كتيبة عسكريّة لحماية الحدود من خطر مُحدق. وإذ نجح في مهمّته، أقدم غايوس يوليوس على تبنّيه. وكان تصرّفه هذا أشبه بسيف ذي حدَّين. فقد شكّل تبنّي القيصر لأوكتافيانوس تحدّيًا للداخل من جهة، وفرصة للارتقاء والتألّق من جهة أخرى. ونجح الشاب.

تعاظم شأن غايوس يوليوس قيصر، وزاد نفوذه ونفوذ أتباعه. وأدّى ذلك إلى نموّ الأعداء في الخارج، وولّد خصومًا في الداخل، وتحديدًا داخل أروقة البلاط عينه. وحصلت المواجهات بينه وبين أعضاء مجلس الشيوخ، واحتدم الخلاف. وأتتْ النتيجة موت القيصر في ظروف غامضة. سيقول عنها بعض المؤرّخين إنّه قُتل، وسيقول آخرون إنّه انتحر، وفي جميع الأحوال لم يكن موته طبيعيًّا.

فقدَ أوكتافيانوس والده بالتبنّي، وقرّر عدم الرضوخ للأمر الواقع، وزجّ بنفسه داخل أروقة السياسة في روما. بالمقابل، شكّل موت غايوس يوليوس قيصر حدثًا نوعيًّا في أرجاء المملكة، وانقلابًا داخليًّا في نفس الشاب ابن التاسعة عشرة من عمره. وسرعان ما تسلّلتْ إلى نفسه الفكرة: إنّه الوريث الشرعيّ لوالده، ووجدتْ فيها الأرض الخصبة للنموّ. لا بدّ له من الثأر لمقتل القيصر!

للوصول إلى غايته المنشودة، وجب عليه تقوية مكانته في الوسطَين العسكريّ والسياسيّ. غير أنّ الحنكة والحكمة لا تزالان تنقصانه، خاصّة تجاه فكرة معاقبة الخصوم. في غضون ذلك، كان العرش الملكيّ بعهدة مجلس الشيوخ ولا رأس عليه.

فرض الواقع نفسه على أوكتافيانوس، عندما اكتشف أنّ رجلاً وابنه ربّما كانا شريكَين في مقتل والده. فأتى بهما، وأمرهما أن يقترعا لتقرير مَن منهما سيقتل الثاني، الأب أم ابنه! وإذا رفض الأب الحزين القرار، قدّم نفسه للموت، فما كان من ابنه إلاّ أن انتحر حزنًا على أبيه. وسقط كلاهما أمام أنظار الشابّ إمبراطور الغد.

ترك هذا الاختبار القاسي أثرًا بليغًا في نفس أوكتافيانوس، ووجد نفسه أمام خيار ثانٍ: المعاقبة والقتل لن ينفعا بشيء. الحلّ الوحيد أمامه أن يمدّ يده نحو الخصوم ويتعاون معهم. وهذا ما حصل مع أحد كبار قادة الجيش ماركوس أنطونيوس (روما ١٤ كانون الثاني ٣-١ آب ٣٠ قبل الميلاد)(١٤) الذي كان طامحًا للحكم. تحالف أوكتافيانوس معه، واستطاعا معًا خوض الكثير من المعارك والانتصار على الأعداء في العاصمة وخارجها، وصولاً إلى اليونان حيث انتصرا في معركتَين دمويّتَين.

نجح هذا التحالف في تمكين هذَين الشابّين من السيطرة على جميع أرجاء المملكة، وفتح بلاد الشرق ومصر. غير أنّه لم يدم طويلاً، وذلك بسبب العلاقة الغريبة التي أقامها ماركوس أنطونيوس مع كليوباترا في مصر. وأدّى ذلك إلى وجوب اتخاذ قرار الحزم. فكانت معركة آكتيوم(١٥) سنة ٣١ قبل الميلاد، في غرب اليونان. ودعم مجلس الشيوخ أوكتافيانوس وسانده الشعب.

ولتبسيط الأمور، يمكننا القول إنّ الغرب وقف صفًّا واحدًا إلى جانب أوكتافيانوس، والشرق إلى جانب ماركوس أنطونيوس صاحب النفوذ الواسع فيه. واحتشدتْ الجيوش للدفاع عنه.

ظهر الأمر وكأنّه حرب آلهة روما مع آلهة مصر. تحرّك الأسطول البحريّ مدعومًا بالسفن المصريّة، ودُمّر أكثر من نصفه إذ لم يستطع الصمود في وجه أسطول عاصمة العالم الجديدة. فلم يبقَ أمام كليوباترا إلاّ الانتحار، وشابه مصير ماركوس أنطونيوس مصيرها، وإن اختلف المؤرّخون في تحديد أسبابه. وخضعتْ مصر لروما، وبدا كأنّ للعالم الجديد سيّدًا واحدًا يُدعى أوكتافيانوس. "**شاء القدر أن يُصبح هذا الشاب النحيل البنية، الفولاذيّ الإرادة حاكم روما وسيّدها لمدّة أربع وأربعين عامًا...**"(١٦).

---

(١٤) Marcus Antonius.

(١٥) Actium.

(١٦) حافظ أحمد غانم، الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعارف الجامعيّة للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندريّة، ٢٠٠٧، صفحة ٤٢.



أوكتافيانوس

لا يمكن للعظماء إلاّ أن يتركوا بصماتهم في ضمائر الشعوب. وهذا ما سعى إليه أوكتافيانوس وصنعه فعلاً. لقد نقل روما باتجاه نهضة لا يمكن للبشر انتظارها وتوقّعها إلاّ من الآلهة. ومتى نالت الشعوب حقوقها، عمّ السلام في الأوطان، وتلاحمت الصفوف لتشكّل سدًّا منيعًا في وجوه جميع مَن يتجاسرون ويفكّرون بالغزو أو الحرب.

هابت عظمة هذه الشعوب وتلاحمها الأعداء في الشرق والخصوم في الغرب، وتوقّفت معظم محاولات الغزو والحرب. وعندما يعمّ السلام، تولد النهضة ويُسرع النموّ والازدهار.

استمرّ الحال على هذا المنوال حتّى السنة التاسعة والعشرين قبل الميلاد، حكم خلالها مجلس الشيوخ البلاد، وصان القائد أوكتافيانوس حدودها. وشاءتْ الأقدار أن ينجح، في تلك السنة، بصدّ غزوات قبائل الشمال، وإعادة الأمان إلى البلاد. وكانت مكافأة مجلس الشيوخ سريعة إذ منحه سلطة مطلقة لإدارة شؤون بلاد الغال (جزء من فرنسا وبلجيكا وسويسرا) وإسبانيا وسوريّة.

لم تمضِ سنة حتّى أُعلن قائدًا أعلى للجيوش الرومانيّة. وساد الأمان مجدّدًا حتّى إنّ المؤرّخين أطلقوا على هذه الحقبة اسم "حقبة السلام الرومانيّ"(١٧).

في الثانية والثلاثين من عمره، أصبح أوكتافيانوس الملك الموحِّد، ونال لقب أوغسطس(١٨) ومعناه المعظّم وهو أرفع لقب في الدولة (ومعه بدأ إطلاق هذا اللقب على الأباطرة).

في الثانية والثلاثين من عمر أوكتافيانوس بدأ تاريخ الإمبراطوريّة الذي سيقال عنه "هنا والآن".

عندما يكون الطموح غير محدود، والعزم ثابتًا، واندفاع الشباب قويًّا، لا بدّ من التحلّي بالحكمة والجرأة والصبر في آن معًا. ولا بدّ من تمييز الصديق من الخصم، والاتعاظ من دروس الغير. أدرك زعيم روما الجديدة أنّ انقلاب الزمان قد لا يرحمه، وتقلّب البشر قد يطاله في أيّ لحظة، فكان لا بدّ له من العودة إلى مدرسة أفلاطون والمكدونيّ، وبناء جمهوريّة على أسس حديثة. ولتحقيق ذلك، وجب عليه المغامرة في وضع حدٍّ لنفوذ فريقَين: مجلس الشيوخ صاحب السلطة والسلاح، والشعب الباحث عن أسباب الراحة، ومانح الملوك الدعم والاستقرار. لقد تعلّم الدرس ممّا جرى لوالده بالتبنّي غايوس يوليوس، وعرف أنّه لم يمت إلاّ لسبب واحد هو ادّعاه المُلك وتصرّفه كملك. فلم يرتكب الخطأ عينه، وتخلّى عن مهامه الأخرى السابقة، "**لم يغب عن بال أوكتافيانوس أنّ جشع السلطة هو الذي أودى بحياة قيصر، ولذا أعلن في خطبة دراميّة أمام السناتو... أنّ متنازل عن كافّة السلطات الاستثنائيّة وغير الاستثنائيّة التي وضعا السناتو بين يديه إبّان الحرب ضدّ ملكة مصر**"(١٩). واستطاع أن يصنع توازنًا بين ما هو في الظاهر وما يتستّر وراء هذا الظاهر. وبما أنّه يمتلك السلطة المطلقة كقائد للجيوش وملك، أصدر قرارًا نقلَ بموجبه حكم البلاد إلى مجلس الشيوخ والشعب، وأقنع الجميع بأنّه يُعيد الدولة إلى سابق عهدها الديمقراطيّ في توزيع المهام وإدارة البلاد. واكتفى بحقّه في تقرير توقيت الحرب للدفاع عن البلاد في حال الغزو، فبعثتْ هذه الإجراءات الطمأنينة في نفوس الجميع.

---

(١٧) Pax romana.

(١٨) Augustus.

(١٩) الناصري سيّد أحمد عليّ، **تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسيّ والحضاري**، طبعة ثانية منقّحة ومزودة، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٩١، صفحة ٢٣.

وعلى الرغم من هذه الإجراءات، لم يتراجع طموحه مقدار أنملة في توسيع رقعة إمبراطوريّته التي أرادها جمهوريّة ديمقراطيّة. فغزا بلاد الشمال التي كانت لا تزال تمثّل، حتّى الأمس القريب، تهديدًا مباشرًا، واستطاع توسيع حدود المملكة شمالاً وشرقًا، من إسبانيا الوسطى إلى ألمانيا وهنغاريا الحاليّة وصولاً إلى ما تبقّى من أجزاء في آسيا الصغرى. ولعب تواضعه دورًا مهمًّا في اكتساب محبّة الناس لشخصه، إذ لم يكن يلبس الحلل الفاخرة إلاّ نادرًا، واشتهر بقربه من البسطاء والعامّة، وتدخّله في حالات اجتماعيّة كثيرة لحلّ خلافات أو لإنصاف المظلوم وإقامة الحقّ.

ومع اتساع الرقعة الجغرافيّة للمملكة، تحرّكت الدورة الاقتصاديّة، وزادت البحبوحة بين الناس، فشعر الجميع بالرضى. ولم يغفل القائد الجديد عن موضوع الترفيه والتربية والتثقيف، فسارع إلى بناء مسارح استعراض الحيوانات، وملاعب مبارزة للرياضيّين، ودور الثقافة والبحث العلميّ. وكانت النتيجة إيجاد فرص عمل جديدة لمئات من العاطلين عن العمل. وصار الشاب معبود الجماهير.

سبق لكثيرين أسلاف أوكتافيانوس أن عرفوا غدر الزمان وتغيّر الفصول، الأمر الذي لم يكن بحسبان أحد على عهد أوغسطس الأوّل. ففي السنة الثالثة والعشرين قبل الميلاد، هاجت الطبيعة بأمطارها الغزيرة وأدّت إلى فيضان الأنهار وإغراق المدن.

كان لا بدّ من اتخاذ قرارات فوريّة، سريعة وحاسمة لتجنّب الدمار. ولكن كيف السبيل لذلك والسلطة التنفيذيّة بيد كلّ من مجلس الشيوخ والشعب؟ وإذ تأخّرت الإجراءات الوقائيّة، تفشّى الطاعون في روما. وهبّ الشعب الذي عزا السبب إلى تقاعس الملك عن القيام بمهامه، وعلت الأصوات المطالبة بمنح سلطات أوسع لأوكتافيانوس. ثمّ تحوّلت إلى هتافات تطالب بإعلان أوكتافيانوس إمبراطورًا مطلق الصلاحيّات. اجتمع المجلس لدراسة الطلب، لكنّ مطالب الشعب كانت أسرع، فاحتشد الجمهور وأحاط بمبنى مجلس الشيوخ وهدّد بإحراقه ما لم يُصدر الأعضاء قرارًا يُرقّون فيه أوكتافيانوس إلى رتبة إمبراطور مطلَق، ويمنحونه بموجبه صلاحيّة "ديكتاتور".

تأثّر أوكتافيانوس بموقف الجماهير، وقرع صدره وأقسم أمامهم بأنّه سيهتمّ شخصيًّا بحلّ هذه المشكلة، ولكنّه رفض قبول لقب "الديكتاتور".

انسحبت الحشود، غير أنّ المشكلة لم تنتهي بعد، إذ يتخطّى حلّها قدراته. إنّه بحاجة على عون إلهيّ. وبالفعل، حدث ما لم يكن يتوقّعه أحد. هدأتْ الطبيعة وتراجع انتشار المرض.

كانت سعادته أكبر من أن توصف، ورأى فيما حدث تدخّلاً لروح والده يوليوس، الذي لم يتلكّأ عن أن يطلق عليه اسم القيصر الإلهي.

ولكنّ ما حدث، جعله يُدرك أنّ جذور المشكلة أدبيّة وأخلاقيّة وتربويّة في الدرجة الأولى. ولا بدّ لمستقبل أفضل لروما من العودة إلى الجذور واستخلاص العِبَر في صناعة الديمقراطيّة التي أهمّ أُسسها الإيمان. فأعاد ترميم عشرات المعابد، وأعاد إحياء رتب تقديم الذبائح للآلهة. واستحدث قوانين تنظّم حياة المجتمع، ويحترم فيها المواطنون أحدهم الآخر. منع الزنى، وشجعّ على الزواج وإنجاب الأولاد بطريقة شرعيّة. وخلال فترة زمنيّة قصيرة، عادت المملكة إلى الازدهار والنموّ، وعاد مجلس الشيوخ إلى الاضطلاع بمسؤوليّاته الحقيقيّة. ومُنع استخدام العنف في المسارح. وارتقت حريّة الفرد إلى درجة معاقبة كلّ مَن يُسيء إليها.

لا شيء ممكن أن يكتمل على الأرض. هناك دومًا أصحاب مصالح خاصّة قد تهدّد الأمن والنظام في أيّ وقت. ولكن مَن يمكنه أن يُصدّق أن تأتي الخيانة من عُقر الدار؟

كان أوكتافيانوس قد تزوّج وأنجب ابنته يوليا(٢٠). وما أراده للآخرين من نجاح أُسريّ فشل في تحقيقه لنفسه، فلم يكن سعيدًا في زواجه، وسرعان ما انفصل عن زوجته، ليتزوّج بأخرى، ولكن مَن هي زوجته الثانية؟ وماذا كان دورها؟ إنّها والدة خلفه تيباريوس قيصر الذي سيتبنّاه أوكتافيانوس(٢١).

نشأت الصبيّة يوليا في أجواء بيت يقضي والدها معظم أوقاته خارجه، وعندما يعود، تُسارع الخلافات بينه وبين زوجته لتوتير الأجواء.

لا شكّ بأنّ من حقّ الصبيّة الطبيعيّ أن تنال قسطًا من الرعاية والحنان من والدها، وأن يمنحها بعض التكريم والإجلال أمام الآخرين. ولكنّه لم يفعل.

تمرّدت الصبيّة على كلّ شيء، وراحتْ تفعل جميع ما من شأنه أن يُثير حفيظة والدها ويهزّ سمعته النقيّة. ولكنّها لم تنتبه إلى أنّ هذا الوالد هو أوكتافيانوس العادل الذي لا يُحابي الوجوه حتّى ولو كان وجهها. وبعد إرشادها ونصحها وتأنيبها مرارًا وتكرارًا، بدون جدوى، اضطرّ إلى نفيها.

لم يمضِ وقت طويل على نفيها حتّى بدأ الشاعر الشهير أوفيديوس (٢٠ آذار ٤٣ قبل الميلاد-١٧ ميلاديّة)(٢٢) بنشر قصائد مُشينة تمجّد أفعال الفتاة، وتُحرّك الغرائز الجنسيّة، وتستعمل الرموز المبطّنة للنيل من سمعة الملك.

---

(٢٠) Iulia.

(٢١) لمزيد من التفاصيل، راجع الناصري سيّد أحمد عليّ، **تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسيّ والحضاري...**، صفحة ١١٤-١١٧.

(٢٢) Publius Ovidius Naso، شاعر رومانيّ شهير عاش ما بين السنوات ٤٣ قبل الميلاد و١٧ ميلاديّة) أشهر قصائده "Metamorphoses".

صمت الرجل الحكيم طويلاً. وكان صمتُه في غير مكانه، فقد انتشرت قصائد أوفيديوس بين الناس، وبما أنّ ميول الناس تجمح عفويًّا إلى كلّ ما هو غرائزيّ وماديّ، فقد أسهمتْ هذه القصائد في عودة تفشّي ظاهرة الإباحيّة بين الناس.

مضتْ عشر سنوات والملك ينتظر ويترقّب إلى أن طفح الكيل. وكان مصير أوفيديوس النفي هو الآخر. رُحّل إلى أقصى الشرق بالقرب من البحر الأسود. ومَن يعرف الطبقة النبيلة التي ينتمي إليها ومكانته الأدبيّة والاجتماعيّة، يمكنه أن يتصوّر تأثير مثل هذا القصاص على كرامة الشاعر.

أمضى أوفيديوس تسع سنوات في المنفى، ومات هناك. وأسهم قرار نفيه في تلطيخ سمعة الملك.

أكملت المملكة ازدهارها رغم العثرات، واتّسعت طرق المواصلات بين ربوعها، حتّى إنّ الانتقال من منطقة إلى أخرى صار أسرع، فمن روما إلى مصر كانت سبعة أيام كافية لوصول المسافر.

اهتمّ أوكتافيانوس بتنظيم البلاد، وقسمها إلى مقاطعات ووضع على رأس كلّ منها حاكمًا أو واليًا. وسعى للمحافظة على تقاليد الشعوب في الشرق، واحترام حقوقهم الدينيّة.

في الحياة أخطاء جسيمة وأخرى أقلّ جسامة. ومتى صدر الخطأ الجسيم عن رجل كبير كأوكتافيانوس، تكون نتائجه خطيرة وربّما كارثيّة. نعم وقع الملك ضحيّة الخلافات الزوجيّة وهُدم بيته، وتزوّج من امرأة أرملة، قيل إنّها مطلّقة، وفي السنة الرابعة ميلاديّة، تبنّى ابنها.

شاب عرف أن يستأثر بعواطف القيصر، وأن يُظهر شجاعة، وأن يرتقي بالمراتب الواحدة تلو الأخرى وصولاً إلى خلافة أعظم ملك. وستخسر روما الكثير من مكانتها ومجدها على عهده.

ختم أوكتافيانوس صفحاته حياته تاركًا مملكة واسعة تضمّ إسبانيا وفرنسا واليونان وآسيا الصغرى وسوريّة.

في مثل هذه الأجواء، وخلال حكم هذا الإمبراطور وُلد يسوع المسيح، وعاش وترعرع، وسمع أيضًا بنبأ وفاة أوكتافيانوس واعتلاء تيباريوس سدّة الحكم.

ثانيًا: تيباريوس يوليوس أوغسطس (١٦ تشرين الثاني ١٤ قبل الميلاد- آذار ٣٧ ميلاديّة)(٢٣)

ترك أوكتافيانوس مملكة واسعة الأرجاء، ورحل لتُطوى معه صفحة مجيدة من تاريخ روما.

---

(٢٣) Tiberius Iulius Caesar Augustus.

كان اختيار الخلف أمرًا في غاية الصعوبة والتعقيد. لا وريث لأوكتافيانوس إلاّ رجل سبق للقيصر أن تبنّاه كما حصل معه هو نفسه عندما تبنّاه يوليوس. غير أنّ ذاك القيصر الإلهيّ عرف أن يختار ابنه بالتبنّي، وصنع فعلاً مجد روما. فهل نجح الصانع نفسه في ترك روما بين أيدي خلف يسير على خطاه، ويقودها من مجد إلى مجد؟

يبدو أنّ أوكتافيانوس أوغسطس لم ينجح. وثمن الفشل كان باهظًا. ولسنا نسمح لأنفسنا في الحكم على تيباريوس وعلى سلوكه، كما فعل بعض المؤرّخين الذي انقسموا إلى فريقَين: فريق أوّل جعل منه طاغية عاتية وقاتلاً شريرًا، وفريق آخر اعتبره ضعيفًا ومريضًا نفسيًّا.

طبعًا، ليس من المنطقيّ أن نُقارن بين أوكتافيانوس وتيباريوس، فهذا إجحاف بحقّ كليهما. ويجب على الباحث المعتدل والعادل ألاّ ينجرّ وراء هذا المؤرّخ أو ذاك، بل أن يسرد الأحداث بشفافيّة وبساطة.

ربّما ظلم تيباريوس نفسه قبل أن يظلمه التاريخ، وربّما ظلمه أوكتافيانوس نفسه عندما أوصله إلى سدّة الحكم، **"لم يستقبل تيبيريوس العرش بالسرور والفرح، بل استقبله بالزهد وعدم الاكتراث والتلهّف، إذ كان يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا"**[٢٤]. وليس لنا أن نحكم على أحد.

وثق مجلس الشيوخ بحُسن اختيار أوغسطس لشاب في الثامنة والثلاثين من عمره، هو تيباريوس كلوديوس نيرو[٢٥] ابن أسرة رومانيّة عريقة ومشهورة بوطنيّتها وبرجالها الأبطال.

سبق صيتُ تيباريوس، المولود في روما سنة ٤٢ قبل الميلاد، دخوله البلاط، وقد تبنّاه أوغسطس، في السنة الرابعة ميلاديّة. ومنذ مطلع ظهوره على حلبة مسرح التاريخ الرومانيّ، وصولاً إلى السنة الرابعة عشرة ميلاديّة تاريخ تعيينه سيناتورًا ثمّ إمبراطورًا، حظي باهتمام الجميع.

فمَن هو هذا الرجل؟ وكيف حظي بثقة القيصر؟

إنّه ابن ليفيا[٢٦] السيّدة الرومانيّة الأصيلة ذات الحسب والنسب التي ذاعت شهرة فضائلها وتواضعها وأعمالها الحسنة. وابن تيباريوس قائد أحد أساطيل غايوس يوليوس قيصر. ذلك الرجل النبيل وُجد في بيته أكثر من ستّمائة خادم عاملهم جميعًا كالأبناء، ولم يُعرف عنه أنّه ظلم أحدًا يومًا.

---

(٢٤) لمزيد من التفاصيل، راجع الناصري سيّد أحمد عليّ، **تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسيّ والحضاري**...، صفحة ١٣٢.

(٢٥) Tiberius Claudius Nero.

(٢٦) Livia.



تيباريوس

ترعرع تيباريوس في هذا البيت الأرستقراطيّ النبيل، ونال من الدلال ما لم ينله أيّ فتى من أبناء جيله. ولكنّ فترة الرخاء لم تدم أكثر من ثلاث سنوات.

من بعد موت غايوس يوليوس، وظهور كلّ من أوكتافيانوس وماركوس أنطونيوس، وجد الوالد نفسه في صفوف عشيق كيلوباترا، ولم يتخيّل البتّة أن يكون النصر حليف أوكتافيانوس.

أمام حرج الموقف، اضطرّ لترك روما والسفر نحو بيروجيا(٢٧)، ومنها إلى نابولي، ثمّ صقلية فاليونان.

(٢٧) Perugia.

لم يطُل أمد غضب أوكتافيانوس على مناصري ماركوس أنطونيوس، وأصدر عفوًا عنهم، شعروا خلاله بالأمان، فعاد التيباريوسان الوالد وابنه إلى روما، وكانت ليفيا حاملة بابنها الثاني.

حصّل تيباريوس ثقافة واسعة جعلت منه محطّ تقدير الكثيرين. غير أنّ الدلال والمال خطران دائمان يمكنهما قلب المعادلات النفسيّة، وتحويل شابّ مثقّف إلى مجرّد قويّ يُخفي نقاط ضعف نفسيّة كثيرة قد لا ينتبه إليها حتّى أصحاب النظر الثاقب والحدس الشديد.

شبّ تيباريوس كلوديوس، وانخرط في صفوف الجيش، وتدرّب على يدَي كبار العسكريّين، فأظهر شجاعة وحنكة وبطولة. الأمر الذي جعله يتدرّج في الرتب العسكريّة. وسُرعان ما تسلّل الغرام إلى قلبه، ولكنّه فشل في الحبّ مرّتَين، كان ثانيها زواجه من يوليا ابنة أوكتافيانوس التي أعادها من المنفى، ولكنّه لم يعرف للسعادة طعمًا معها.

وشاءت الأقدار أن يموت والده وأن تُصبح والدته ليفيا زوجة لأوكتافيانوس، فصار ابنها هذا محطّ أنظار روما.

خلال فترة حكمه، عمل أوكتافيانوس، على إبقاء روما في مركز الصدارة، الأمر الذي لا يمكن أن يتمّ إلاّ إذا استمرّ الحكم بين أيدي نبلائها حصرًا. وإنطلاقًا من هذه القناعة سعى إلى تدريب تيباريوس على نظام الحكم. غير أنّه اقتنع، مع مرور الوقت، بأنّ هذا الشاب لن يكون خير خلف له. ولكن ما العمل، وقد أصبحت أيام القيصر معدودة ولا مجال لتدريب شخص آخر!

لم يثق مجلس الشيوخ باختيار أوكتافيانوس، وعلى الرغم من ذلك، قبِل بترفيعه إلى رتبة سيناتور (عضو في مجلس الشيوخ).

وما إن انتشر خبر موت أوكتافيانوس حتّى وجد أعداء الأمس الفرصة سانحة للانقضاض على روما. أُعلن تيباريوس إمبراطورًا.

صُدم قادة الجيش الذين سبق أن تعرّفوا على شخصيّته، وحصل استياء في بعض صفوف الجيش، شمل ألوية تعدّ ألوف الجند، وعلى رأسها قادة قدماء.

حصل التمرّد، وهجم الجنود على بعض القرى، ورفضوا الانصياع إلى أوامر روما. وأمام تعاظم حالة التمرّد، أرسل تيباريوس أحد أفراد أسرته وهو القائد جرمانيكوس[٢٨] الشاب المحبوب والقريب من الجند الذي لفرط عُشقه لانتمائه العسكري، ألبس ابنه الثياب العسكريّة ولم يكن قد بلغ السنتَين من عمره.

---

(٢٨) Iermanicus.

طفل أحبّه الجنود وأطلقوا عليه اسم كاليغولا(٣٠) من اللاتينيّة كاليغا(٣١) ومعناه "حذاء الجنود".

عندما وصل جرمانيكوس إلى حقل التمرّد، سرعان ما أدرك أنّ نار الثورة لن تخمد وأنّ حياته وحيوات مرافقيه وأسرته في خطر. وأمر زوجته بالابتعاد واللجوء عند إحدى القبائل الموجودة في تلك المنطقة من شمال إيطاليا. وهكذا حصل، حملت الزوجة ابنها كاليغولا. وبعد أن عانقت زوجها والدموع تملأ وجهها، همّت بالرحيل ترافقها زوجات بعض القادة. وعلت شهقات البكاء، وبلغ صداها آذان الجند القابعين في الخيام، فخرجوا ليروا ما يحصل، وإذ عرفوا بالقرار، اعتبروا أنّ تركها تنطلق هو العار بحدّ ذاته. فطلبوا منها التراجع عن قرار الرحيل. وأتت النتيجة سريعة، وانضمّوا إلى جرمانيكوس وقد أعتبروه بطلاً.

استغلّ الرجل هذه العواطف واستمال الجنود، ووعدهم بمستقبل زاهر، وبتحسين أوضاعهم المعيشيّة، ونجح في تهدئة نفوسهم. وأسهم كونه حفيد أوكتافيا أخت أكتافيانوس من زوجها ماركوس أنطونيوس في منحه ثقة الجنود.

وبما أنّ تيباريوس كان متقدّمًا في السنّ ومنطويًا على ذاته، فقد زادت شعبيّة جرمانيكوس الذي كان قريبًا من الناس، ومحبًّا للفنون والشعر، وكاتبًا مرموقًا. ولعب طبعه الإنسانيّ في إعلاء شأنه بين الناس.

عاد جرمانيكوس إلى روما منتصرًا سياسيًّا، وصفّق له المجلس، وكرّمه الإمبراطور. ولم يمضِ وقتًا طويل حتّى أرسله إلى ولايات الشرق ليطّلع على أحوالها.

غادر الرجل روما متوجّهًا نحو اليونان، ومنها إلى أرمينيا حيث احتفى به ملكها وكرّمه، فأسرع جرمانيكوس ومنحه الشرعيّة باسم روما. ومن أرمينيا إلى مصر حيث كان أمامه أن يحلّ مشكلة القحط والجفاف والفقر، فأمر بفتح أهراءات القمح في الاسكندريّة وتوزيعها على الناس، الأمر الذي لا يمكن لأحد التجرّأ على فعله بدون إذن القيصر. جاب الشابّ المندفع بلاد مصر من شمالها إلى أقصى جنوبها مرتديًا الزيّ الإغريقي القديم، فلفتْ أنظار الناس، وبدا وكأنّه اسكندر ثانٍ. فكُرّم كثيرًا. غير أنّ الشهرة الزائدة قد تكون أحيانًا مضرّة ومميتة. وهذا ما رآه الفتى كاليغولا (إمبراطور الغد) يحصل مع والده جرمانيكوس، فهل تعلّم الدرس؟

على كلّ حال، يبدو أنّ أناسًا من أمثال جرمانيكوس لا يعيشون طويلاً، وأنّ القدر حدّد أعمارهم. فهل أنّ جرثومة ما تسلّلت إلى جسمه أم إنّه مرض داخليّ؟ لا أحد يعلم.

---

(٣٠) Caligula.

(٣١) Caliga.

أنهى جرمانيكوس زيارته إلى مصر، ونال قسطه من المجد هناك، وقسطه من غضب تيباريوس وعتابه. وانطلق إلى ولاية سوريّة حيث لم يحالفه الحظّ بفعل الكثير سوى المشاحنات مع واليها، وسقط طريح الفراش، لم يُمهله الموت خلالها إلاّ أيامًا قليلة. وطُويتْ صفحة خليفة محتمل للقيصر، ورحل قبل أن يُنهي الثالثة والثلاثين من عمره.

ما إن انتشر خبر وفاته، حتّى سرت الشائعات بين الناس، واتُّهم والي سوريّة بوضع السمّ له في الطعام. وعمّت الفوضى في الشرق حتّى إنّ البعض راحوا يُذيعون إشاعة خطيرة مفادها أنّ لتيباريوس اليد الطولى في مثل هذا العمل. الأمر الذي اضطرّ القيصر على إحضار والي سوريّة إلى روما ومحاكمته علنيًّا(٣١).

شعر الرجل بالإهانة، ولم ينتظر حتّى انتهاء المحاكمة، بل أسرع إلى الانتحار، وقفل بموته قضيّة موت جرمانيكوس.

يُشبه حُكم روما إيواء حيّة في الفراش. هكذا قال الأقدمون.

لا يمكن لإمبراطوريّة ناشئة أن تنهض وتستمرّ بدون وجود شابّ على رأسها. شُغل تيباريوس المتقدّم بالسنّ في التفكير بخليفة له من أبنائه، وأهمل الكثير من شؤون الدولة، حتّى كادت الجمهوريّة التي وضع أوكتافيانوس أُسسها أن تنهار. وسرعان ما فهم الولاة والملوك أنّهم بدون رقيب، فمارس بعضهم القمع، واستغلّ آخرون نفوذهم وحوّلوا السلطة إلى وسيلة للمتعة والملّذات، كما حصل مع أولاد هيرودس الأوّل. وبدأ الاقتصاد بالتراجع، وتفتّحت عيون أعداء الأمس.

وأسهمت قلّة حنكته وسياسته في زيادة الأمور تعقيدًا، فقد كان لا يتردّد في عزل هذا وتنحية ذاك من مهامه، بدون أن يُفكّر بالأسباب ويُعالج المسبّبات.

ظهر تيباريوس أمام مناصريه وخصومه رجلاً منهك القوى ومشتّت الأفكار. فإلى مَن يلجأ لمساعدته؟

اختار القيصر صديقًا له أحد قادة الحرس ويُدعى سيانوس، ووثق به وفضّله على غيره، وقرّبه منه، ولم يتخيّل لحظة أنّ صديقه هذا سيتآمر عليه، وأنّه سيُشكّل تلك الضربة القاضية التي كسرت ظهر قيصر.

ظهر سيانوس بمظهر الرجل الشريف والنبيل، وأخفى تململه من ضعف تيباريوس مُبديًا له كلّ نُصح وإرشاد. وإذ توطّدت الصداقة بينهما، وكل إليه القيصر مهمّة رئيس لكتيبة حفظ النظام وحماية الإمبراطور.

---

(٣١) لمزيد من التفاصيل، راجع الناصري سيّد أحمد عليّ، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسيّ والحضاري...، صفحة ١٣٦-١٣٧.

(٣٢) Aelius Seianus.

اغتنم الصديق الفرصة ليحشد جنوده بالقرب من القصر، ويتقرّب من الناس. وعمل على استمالة عواطف الجنود عن طريق تكريس ساعات وساعات للاجتماع بكلٍّ منهم بمفرده، والاستماع لهمومه ومشاكله. وإذ عرف ميول كلّ منهم الموالية أو المناوئة لهذا السيناتور أو ذاك، راح يوزّعهم بحسب تناقض مشاعرهم. فوضع لحراسة هذا السيناتور مبغضوه، وعزل محبّي ذاك من مهمّة حمايته. وصار معظم أعضاء مجلس الشيوخ في حالة شكّ أحدهم من الآخر. استحقّ إنجاز كهذا كلّ إكرام من القيصر.

مهّد سيانوس الطريق لنفسه نحو عرش روما، وبدا للجميع وكأنّه يتقاسم مع تيباريوس حكم الإمبراطوريّة. وإذ بدأت الشكوك تحوم حوله، شعر بأنّ لديه خصومًا من بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها. فعمد إلى إقناع القيصر بضرورة إبعاد زوجة جرمانيكوس بذريعة أنّها تتآمر عليه بهدف الإطاحة به وإيصال أحد أبنائها إلى الحكم. فكان مصيرها النفي. وفعل الأمر نفسها بابنيها، فُحكم عليهم بالسجن، وكانت النتيجة انتحار الواحد وموت الآخر في ظروف غامضة.

وقوّى سيانوس فكرة التآمر والمؤامرات في نفس صديق القيصر، حتّى صارت أحكام السجن والإعدام تصدر الواحدة تلو الأخرى بحقّ كلّ مَن يرى فيه سيانوس خطرًا على مستقبله كملك أوحد.

عشر سنوات على غياب أوكتافيانوس، كانت كافية لهدم الكثير ممّا أفنى حياته في صُنعه. غير أنّ للمذلّة حدود، وللقمع نهاية، ولنبلاء روما ردّة فعل حاسمة.

زاد نفور المجلس من القيصر، وشعر بخطر مُحدق يحوم حوله، فترك روما، في السنة السادسة والعشرين ميلاديّة، وتوجّه إلى جزيرة كابري(٣٣) التي وجد فيها ملجأً يحتمي به من نهاية وخيمة، وإراحة لنفسه المتعبة.

وفي عزلته هذه، وجد تيباريوس نفسه، أمام فراغ مخيف، لم يستطع أن يسدّه إلاّ الإدمان على الكحول واللجوء إلى التنجيم، والانقياد للغرائز. ولم يُسمح لأحد تعكير خلوات القيصر إلاّ صديقه وخليله سيانوس.

وبما أنّ الحرس الجمهوريّ في يده، استطاع هذا الرجل أن يحكم الإمبراطوريّة بمفرده. غير أنّ الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، وأنّ الحقيقة لا بدّ من أن تظهر مهما تأخّر بها الزمن.

بعد خمس سنوات، بدأت العلاقة بين الصديقَين تضعف تدريجيًّا. لقد ظهر الطفل المُسمّى "حذاء الجنود" وشبّ، وتكلّم وسمع وشاهد، وأدرك أن روما سائرة نحو الانهيار. غامر كاليغولا بحياته، وصار يدنو بحذر من القيصر، وحاول إظهار بعض الإثباتات والحقائق أمامه. كما لعب على الوتر الأسريّ لاستمالة عواطفه.

---

(٣٣) Capri.

ومع مرور الوقت، كسب ثقة القيصر، وسارت العلاقة بينهما باتجاه إيجابيّ. ولم يلبث كاليغولا أن كشف لقريبه جميع الحقائق.

كانت صدمة القيصر أكبر من أن توصف. فبعث برسالة سريّة إلى مجلس الشيوخ أعلن فيها تجريم سيانوس بالخيانة والحكم عليه. اجتمع الأعضاء للاستماع إلى رسالة القيصر، ودخل معهم سيانوس فرحًا مبتهجًا وقد اعتقد أنّ الرسالة تحتوي على قرار إعلانه قيصرًا.

لم تمضِ دقائق على قراءة المبعوث للرسالة، حتّى وجد الرجل نفسه أمام أرفع محكمة في الدولة.

طُلب منه تسليم نفسه. ولكن كيف يُسلّم نفسه رجل لم يخضع في حياته لأوامر أحد ولا حتّى الإمبراطور! وإذ همّ بالخروج من المجلس، توجّه منه الرئيس قائلاً: سيانوس توقّف، وكرّر الطلب مرّة ثانية وثالثة. إذ ذاك، التفت المحكوم عليه، وقال لرئيس المجلس: أإليّ تتوجّهون بالكلام؟ أوقف، ونُفذّ الحكم فورًا. شُنق وأُلقي جثمانه في نهر التيبير .

استعاد تيباريوس سلطته، وأكمل من جزيرة كابري الفترة المتبقّية من حُكمه.

وفي السنة السابعة والثلاثين ميلاديّة، أغمض القيصر عينيه تاركًا روما بين يدي شابّ لم يعرف قلبه إلاّ الألم والحقد على ما حصل لوالدَيه وأخويه.

خاتمة

عرفتْ روما حُكم ثلاثة قياصرة: غايوس يوليوس قيصر وأوكتافيانوس أوغسطس اللذَان قادها نحو المجد، وتيباريوس الذي أعادها سنوات إلى الوراء.

في عهد الثاني وُلد يسوع المسيح، ونما وبلغ سنّ المراهقة. وفي عهد الثالث حُكم عليه بالصلب، ونُفّذ الحكم.

أُنهي هذا الفصل، وأنتقل للحديث عن أرض فلسطين خلال الفترة التي ولد فيها يسوع وعاش، وحُكم عليه بالصلب.

(٣٤) Tevere.

الفصل الرابع
أرض فلسطين وحكّامها ما بين السنوات
٦٤ قبل الميلاد -٣٤ بعد الميلاد

أوّلاً: ملك اليهود هيرودس أنتيباتر أو هيرودس الكبير أو هيرودس الأوّل (٣٧ قبل الميلاد ٤ قبل الميلاد) ويجب عدم الخلط بينه وبين هيرودس الأكبر وهو والده.

(ملاحظة هامّة: ضمن إطار تاريخيّ شديد التعقيد يندرج تاريخ الشعب اليهوديّ وتاريخ تملّكه في أرض فلسطين. ونظرًا إلى التعقيدات الهائلة في سرد تسلسل هذا التاريخ وانقسامات ملوكه وتحالفاتهم، أكتفي بسرد سريع، وأنطلق مباشرة من وصول هيرودس إلى الحكم، لأنّ كتابة تاريخ ملوك اليهود يحتاج إلى كتاب خاصّ).

كثيرون هم أعداء اليهود، عبر التاريخ وعلى امتداده. حروب لم تتوقّف إلاّ لفترات زمنيّة قصيرة. تشتّت وسبي ونفي، ثمّ أرض موعودٌ بها من إله إبراهيم واسحق ويعقوب وموسى. وأخيرًا مملكة شبه مستقلّة.

في أرض شبه مقفرة وصخريّة استقرّ اليهود بعد أجيال من العبوديّة في مصر. إنّها أرض فلسطين التي حطّ ترحالهم فيها حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

في القرن العاشر قبل الميلاد بدأت مملكة اليهود بفلسطين، واستمرّت حتّى القرن السادس قبل الميلاد عندما هجم الفرس واحتلّوا تلك الأرض وأخذوا شعبها عبيدًا إلى بلادهم.

تشتّت معظم اليهود في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسّط، وبقي بعضهم في أرض فلسطين.

وصل الاسكندريّ المكدونيّ وأنشأ إمبراطوريّته التي ابتكر فيها المزج الحضاري، واحترم شعوبها وتقاليدهم وأديانهم. فعاد جزء كبير من يهود الشتات إليها، وحصلوا على امتيازات ونوع من الاستقلاليّة. وبدأت مجدّدًا قصص ملوك أورشليم الذين وإن كانوا سيخضعون للسلطة العليا في الإمبراطوريّة، إلاّ أنّهم سيتمتّعون بنوع من الاستقلاليّة.

وفي أورشليم شيّد هذا الشعب، منذ أكثر من ستّمائة سنة، هيكل إلهه المعروف بهيكل سليمان، وجمع بين جدرانه جميع مقدّساته، وابتنى معابد ومراكز دينيّة وتبشيريّة.

مع مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، بدأ نفوذ اليهود بالتعاظم في فلسطين عمومًا وفي أورشليم خصوصًا. ولعب الامتزاج الحضاريّ دوره في نشأة تيّارات فكريّة تعدّديّة بين اليهود. تأثّر بعض هذه التيارات بالفكر اليونانيّ، وبقي بعضها الآخر تقليديًّا محافظًا على تعاليم ديانة الآباء والأجداد. وسرعان ما انقسمت التيّارات إلى أحزاب، ونشأ بينها صراع دينيّ اتّسم تارة بالحدّة والعنف، وطورًا بالتسامح والحوار.

سقطتْ أرض فلسطين بيد الرومان، سنة ٦٤ قبل الميلاد، ولكنّها بقيتْ منطقة يهوديّة شبه مستقلّة من حيث الحضور الدينيّ والكهنوتي. ونجح المدعو أنتيباتر، وهو والد هيرودس الذي عُرف بهيرودس الأوّل، بإقامة علاقة وثيقة مع غايوس يوليوس قيصر (والد أوكتافيانوس بالتبنّي). وكانت أسرة أنتيباتر آدوميّة (من منطقة العربيّة، أجزاء من الأردن الحاليّة) وقد اعتنقت الدين اليهوديّ تحت تأثير الضغط اليهوديّ آنذاك. واستطاع هذا التحالف أن يصل بأنتيباتر إلى حكم منطقة اليهوديّة (أجزاء واسعة من فلسطين الحاليّة).

عاد اليهود إلى الحكم، ولا يمكن لأحد أن ينتـزع منهم ما حصلوا عليه، وهم على استعداد للتحالف مع أيّ كان لتأمين الأمان والاستقرار من جهة، ولدرء شرّ أعداء الأمس من مصريّين وفرس من جهة ثانية، وطمعًا بتحقيق حلم طال انتظاره وهو تأسيس دولة يهوذا التي سيحكمها المسيح المنتظر، من جهة ثالثة.

اقتربَ مجيء الماسيّا (المسيح) ووجب على اليهود التحضّر لإمبراطوريّتهم التي ستحكم العالم. وذلك باستنادهم على نبوءة دانيال "**إنّ سبعين أسبوعًا حُدّدت على شعبك وعلى مدينة قُدسك لإفناء المعصية وإزالة الخطيئة والتكفير عن الإثم والإتيان بالبرّ الأبديّ وختم الرؤيا والنبوءة ومسح قدّوس القدّيسين. فاعلم وأفهم، إنّه من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم إلى رئيس مسيح سبعة أسابيع، ثمّ في اثنين وستّين أسبوعًا تعود وتُبنى السوق والسور، ولكن في ضيق الأوقات. وبعد الأسابيع الاثنين والستّين يُفصل مسيح ولا يكون له... ويأتي رئيس فيُدمّر المدينة والقُدس...**"(٣٥). غير أنّ نصّ النبوءة لم يحصل إلاّ سنة ٧٠ ميلاديّة، وأخطأ اليهود في توقّعاتهم.

وظهرت حسابات المنجّمين الزرداشتيّين (مَن عُرفوا بالمجوس) أكثر دقّة من حسابات شيوخ اليهود ومنجّميهم.

عيّن غايوس يوليوس قيصر هيرودس ابن أنتيباتر واليًا على الجليل، وابنه الثاني، واسمه فصايل، واليًا على أورشليم. ومن بعد موت الوالد أنتيباتر، انتحر ابنه والي أورشليم في ظروف غامضة. فسار شقيقه هيرودس بجيشه نحو أورشليم ونجح في إحكام سيطرته عليها. وكان غايوس يوليوس قد لقي حتفه.

وصل هيرودس بن أنتيباتر (حكم ٣٧ قبل الميلاد-٤ ميلاديّة) إلى الحكم، بدون أن يكون مميّزًا في شيء إلاّ بجنونه ودمويّته وأساليبه الوصوليّة للبقاء في الحكم وتوسيع نفوذه إلى أقصى درجة. وعرف أن يقرأ الأحداث، فتحالف مع القائد ماركوس أنطونيوس في حروبه بالشرق، وسانده كلّ مساندة.

(٣٥) ٩: ٢٤-٢٦.



هيرودس الكبير

لم تتأخّر مكافأة ماركوس أنطونيوس، فاصطحبه معه إلى روما، قبل أن تبدأ الخلافات بينه وبين أوكتافيانوس، وعرّفه على القيصر. وبعد أن مدحه ماركوس أنطونيوس أمام أوكتافيانوس، وبعد أن منحه لقب المبجّل(٣٦)، قرّر الاثنان، كعرفان بالجميل منحه لقب ملك اليهود. الأمر الذي تمّ في حفلة تنصيب مهيبة بروما. وبحضور مجلس الشيوخ، وضع أوكتافيانوس التاج على رأسه، وأمر بعزف الأبواق أمامه، وأن يُنادى في شوارع روما بأنّ أوكتافيانوس قد ملّك هيرودس على اليهود في بلاد اليهوديّة. وكانت وليمة تكريميّة في قصر ماركوس أنطونيوس للملك اليهود الجديد(٣٧).

لم يتأخّر هيرودس في ردّ الجميل لروما وأسرع بحشد اليهود لمحاربة الفرس جنبًا إلى جنب مع ماركوس أنطونيوس. وكانت حرب الكر والفرّ، وكاد هيرودس أن يخسرها بعد أن استولى الفرس على أورشليم، لولا ثورة الطبيعة وهطول الأمطار واشتداد الأعاصير.

---

(٣٦) Venerabile.

(٣٧) Cfr. Graetz Heinrich, **Histoire des Juifs**, vol. 1, Copie Internet François-Dominique Fournier, 2004, p. 328. Traduit de l'allemand par Wogue et Bloch.

طال أمد الحربّ، فأسرع ماركوس أنطونيوس بالكتابة إلى سكّان سوريّة وبلاد ما بين النهرَين طالبًا الدعم، ومُعلنًا لهم تملّك هيرودس على اليهود. الأمر الذي وسّع رقعة شهرته.

واتّسعت رقعة الحرب، وانتصر الرومان ودحروا الفرس، وظهر هيرودس بطلاً وحليفًا لا يمكن الاستغناء عنه، ولا حتّى عرقلة مطالبه.

وعلى الرغم من أنّ هيردوس هذا لم يكن من أصول يهوديّة صِرف، ولم يكن يحظى بتأييد مختلف شرائح اليهود، إلاّ أنّه أُعلن ملكًا لليهود.

امتاز هيرودس بدهائه، واتّسمت شخصيّته بالكبرياء والغطرسة والميل نحو العنف، وكان سريع التقلّب في آرائه، ومؤمنًا بالعرافة والنحس. واشتهر بتعدّد الزوجات، وقيل إنّه تزوّج عشرة نساء، وبإنجاب الكثير من الأولاد الشرعيّين منهم وغير الشرعيّين.

ولكي يكسب رضى التيّار المعارض، سارع للزواج من إحدى سليلات الأسرة الكهنوتيّة واسمه مريام أو ميريامن أو مريم(٣٨).

هناك طريقتان للحكم وللاستمرار في الحكم: إمّا العدل والتواضع وبالتالي، اكتساب محبّة الناس. أو التقسيم والبطش والعنف، وبالتالي حُكم الناس بالقوّة والطغيان. وقد اختار هيرودس الطريقة الثانية.

خلال فترة حكمه، أتقن هيرودس فنون التحريض الديني، ولم يتوانَ عن دعم التيّارات اليهوديّة التكفيريّة المتطرّفة. وأوجد إلى جانبه مجموعة من الكهنة وشيوخ الشعب ممّن عُرفوا بنـزعتهم العدائيّة تجاه الرومان وكلّ مَن لا يدين بدينهم.

ونجح في اللعب على العواطف الدينيّة لكسب تأييد مختلف شرائح الشعب.

ما إن انتهت الحرب على الفرس وتمّ دحرهم، حتّى أسرع ملك اليهود لتوسيع بناءِ هيكل سليمان وتحصينه بأسوار عالية. كما أضاف إليه زخارف هندسيّة، وجمّل بنيانه. وقد سخّر لتحقيق هدفه كبار المهندسين وأعدادًا هائلة من العمّال. واستغرق العمل سنوات. وانتهى ترميم الهيكل وتوسيعه، وأصبح فعلاً تحفة فنيّة رائعة.

كما وسّع قصره الملكي، وظهر في وسطه كأنّه ملك الملوك بدون منازع.

ومارس هذا الرجل جميع الفنون والحيل لاغتيال جميع أعدائه، لكي تخلو الساحة له. وظهرت معظم جرائمه وكأنّها ميتات قضاء وقدر. فهذا مات غرقًا، وذاك حرقًا، وآخر مسمومًا.

أمّا على المستوى العامّ، فقد تراجعتْ صداقة ماركوس أنطونيوس به بسبب تأثير كليوباترا على هذا الأخير. وهي التي لطالما كانت، بدهائها، كاشفة لحيل هيردوس، وتُضمر له في صدرها حقدًا لا يمكن ريّه إلاّ بقتله.

---

(٣٨) Miraimne.

حاولت كليوباترا، مرارًا وتكرارًا زجّ هيردوس في المعارك بواسطة ماركوس أنطونيوس. وكانت من وراء ظهر الاثنين تعقد الصفقات مع العدوّ وتدعمه عسكريًّا لكي يتمكّن من القضاء على هيرودس. ولكنّ جميع محاولاتها باءت بالفشل. وصمد ملك اليهود.

لم يوفّر أحدًا من شرّه، بل كان مجرّد شكّه بأيّ شخص سببًا لعقوبة الموت. ناهيك عن ابتكاره لجميع فنون الفتنة. فكان يُحرّض الأخ على أخيه، والابن على أبيه، والكنّة على حماتها. وبتحريضه تمّ تصفية جميع أفراد أسرة زوجته ميريام (ميريامن أو مريم)، ولم يسلم شقيقه من بطشه. حتّى صارتْ هذه الرذائل من إحدى سمات المجتمع اليهوديّ التي سيسلّط يسوع الضوء عليها في أخطر خطاب له: "**أتظنّون أنّي جئتُ لأُلقي على الأرض سلامًا... يُشاق الأب والابن، والأم والبنت، والبنت الأمّ، والحماة كنّتها، والكنّة حماتها**"(٣٩).

لقد أفسد هيرودس المجتمع اليهوديّ بأكمله، وهذا ما حاربه يسوع في عظاته وخطاباته إلى أبعد الحدود.

سبع وثلاثون سنة من حكم الملك الفاسد، كانت أكثر من كافية لزرع الفساد في المجتمع، ولبثّ الخوف في نفوس الموالين والخصوم، بما فيهم ولاة روما وقناصلها.

"**لقد ابتعد عن العادات الموروثة مدمّرًا، تدريجيًّا، بممارسات غريبة، أنظمة قديمة لا تُخرق... أدخل المصارعات الرياضيّة كلّ خمس سنوات تكريمًا للقيصر. وقام ببناء مسرح في أورشليم، وبعد ذلك مدرجًا واسعًا جدًّا في سهل، وكلاهما في غاية الروعة، ولكنّها غريبة عن العرف اليهودي...**"(٤٠).

واشتغل هيردوس على توسيع ظاهرة الزنى، وفي الوقت عينه أصدر أشدّ العقوبات على الزناة. ولم تسلم أخته من هذه التُهم.

قتل هيرودس زوج أخته، وزوّجها من غيره، ثمّ عاد وقتل زوجها الثاني.

ومن غريب أفعاله أنّه كان يخرج متنكّرًا بين الناس، وبعد أن يستمع إلى أحاديثهم، ويعرف مَن منهم يناصبه العداء، يقوده إلى الموت. كما استعمل الرشوة لكسب الوجهاء من الخصوم.

وشاءتْ الأقدار أن ينتهي ماركوس أنطونيوس بالموت، وأن ينفرد أوكتافيانوس العادل بالحكم، فخاف ملك اليهود على نفسه من عدالة هذا الملك، وراح يتحالف معه، وشيّد مدينة قيصريّة (قيصريّة فلسطين)، وبنى قصرًا للوالي في أورشليم.

---

(٣٩) لوقا ١٢: ٥١-٥٣؛ متّى ١٠: ٣٤-٣٦.

(٤٠) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XV: 267-276.

وكان هيرودس كلّما تقدّم في السنّ يزداد شرًّا وغطرسة. فعمد إلى قتل آخر زوجاته، ولم يوفّر أولاد زوجته الأولى. وعندما ثار اثنان من أبنائه، كان مصيرهما القتل.

ويطول الحديث عن مظالم هيرودس. ولكنّي أكتفي بهذا المقدار.

وكانت نهاية هيرودس بشعة لا يتمنّاها إنسان مؤمن لأيّ شرير مهما تعاظم شرّه فأُصيب بالجنون، وبأمراض غريبة عجز الأطبّاء عن علاجها. وكانت الأسابيع الأخيرة من حياته ألمًا لا يُطاق. ومات وهو في نحو السبعين من عمره، وترك للتاريخ أن يُسطّر عنه أبشع الصور.

وعلى الرغم من قتله لعدد كبير من أفراد أسرته وأقربائه، بقي منهم عديدون، من بينهم أولاده الثلاثة أركيلاوس ابن زوجته السامريّة مالثس(٤١)، وفيلبّس من زوجته كليوباترا اليونانيّة(٤٢) وأنتباس وهو أيضًا ابن زوجته السامريّة.

"كان رجلاً قاسيًا على الجميع. سريع الغضب. غير آبه بالعدالة..."(٤٣) .

ثانيًا: الملك أركيلاوس وهو هيرودس الثاني حكم مناطق اليهوديّة والسامرة وآدومية أي مدن: مسدّة، غزّة، حبرون، بيت صور، بيت لحم، بيت عنيا، أورشليم، عمّاوس، اللدّ، الرامة، جبل جرزيم، مدينة السامرة، شليم (٦-٤ قبل الميلاد؟ ٨؟ ميلاديّة)

"...قُم فخذ الصبيّ وأمّه واهربْ إلى مصر، وكن هناك... فإنّ هيرودس مزمع أن يطلب الصبيّ ليُهلكه. فقام وأخذ وأمّه ليلاً وانصرف إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس. فلمّا مات هيرودس إذا بملاك الربّ تراءى ليوسف في الحلم بمصر قائلاً: قُم خذِ الصبيّ وأمّه واذهب إلى أرض إسرائيل، فقد مات طالبو نفس الصبي"(٤٤).

قام يوسف وترك أرض مصر عائدًا إلى أرض فلسطين **"ولّما سمع أنّ أركيلاوس قد مَلَك على اليهوديّة مكان هيرودس أبيه، خاف أن يذهب إلى هناك... فذهب إلى نواحي الجليل"**(٤٥).

نادرة هذه الوثائق التاريخيّة الأمينة التي تتكلّم عن طفولة أركيلاوس بن هيرودس الأوّل.

كيف ترعرع في بيت غريب وعجيب، ومع أب كهيرودس؟

والمحيّر في الأمر، أنّ هيرودس الوالد تذكّر وهو على فراش الموت ابنه أركيلاوس، وأوصى بالعرش له(٤٦). فأين كان؟

---

(٤١) Malthace.

(٤٢) Cleopatra.

(٤٣) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XVII: 191.

(٤٤) متّى ٢: ١٣-١٥.

(٤٥) متّى ٢: ٢٢.

(٤٦) Cfr. Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XVII: 188.

تتركُنا الوثائق التاريخيّة في حيرة من أمرنا. لقد كان أركيلاوس في الهيكل، ولسنوات! وكان يعيش صحبة رؤساء الكهنة والشيوخ. فهل كان جاسوسًا لوالده؟ أم إنّه كان هناك هاربًا من بطش الوالد-الملك؟ لا يزال التاريخ غير قادر على الإجابة عن هذا السؤال.

ما إن انتشر خبر موت هيرودس الأوّل حتّى علت في الشوارع أصوات مزدوجة النغمة. نغمة الشارع المظلوم الذي انطلق يهتف فرحًا لخلاصه من حكم الطاغية. ونغمة أخرى رافضة لتولّي ابنه أركيلاوس مقاليد الحكم من بعده.

وأسرع فريق من اليهود الخطى نحو روما، وتوجّهوا إلى قصر أوكتافيانوس للاحتجاج على أركيلاوس، وشرحوا للقيصر مظالم هيرودس التي لم يكن عقله ليستطيع تصديقها.

وما إن عرف أركيلاوس بتوجّه هؤلاء نحو روما، حتّى أسرع وأرسل فريقًا آخر من مواليه، فاجتمع هؤلاء بدورهم مع أوكتافيانوس، وأقنعوه بأنّ الفريق الأوّل ليس سوى من أعداء روما، ويضمّ محرّضين ومُخطّطين للانقضاض عليها.

أمام هذه المعضلة، وجب على القيصر التحلّي بالحكمة، والتفكير مليًّا بقرار حكيم يُجنّبه الدخول في صراع مع أيّ من اليهود.

وكانت النتيجة أن أصدر قرارًا قسم بموجبه بلاد فلسطين إلى مقاطعات جغرافيّة جديدة، سلّم حكمها على النحو التالي:

عيّن أركيلاوس رئيس ربع على مناطق اليهوديّة والسامرة وآدومية (المدن الخاضعة له: مسدّة، غزّة، حبرون، بيت صور، بيت لحم، بيت عنيا، أورشليم، عمّاوس، اللدّ، الرامة، جبل جرزيم، مدينة السامرة، شليم). ولم يمنحه لقب ملك.

وعيّن فيلبّس هيرودس الأوّل حاكمًا على منطقتَي إيطورية وتراخونيتس (المدن الخاضعة له: بيت صيدا، هيبوس، قيصريّة فيلبّس أي بانياس الحاليّة(٤٧)، جبل حرمون).

وعيّن أنتيباس حاكمًا على الجليل الأعلى وأجزاء من لبنان (المدن الخاضعة له: نائين، الناصرة، جبل ثابور، قانا، طبريّة، مجدلة، كفرناحوم، جبل الكرمل، عكّا، صور، صيدون، صرفت صيدا). وهذا أيضًا اتّخذ اسم هيرودس.

وحصل تمرّد في ربوع اليهوديّة وأورشليم ورفض الشعب الخضوع لأركيلاوس. وكانت ردّة فعله القتل والحرق وإصدار حكم الإعدام. ولم يوفّر كهنة الهيكل وشيوخ الشعب.

واتّخذ أركيلاوس اسم هيرودس، وعُرف باسم هيرودس الثاني. وظهر في حكمه أشدّ وطأة وظلمًا من أبيه.

---

(٤٧) إنّها بانياس فلسطين.

لم تتأخّر أخبار مظالمه في الوصول إلى أوكتافيانوس، فأصدر قرارًا بنفيه إلى بلاد الغال. وعيّن مكانه واليًا رومانيًّا. وكانت النتيجة نهاية حكم اليهود لمنطقة اليهوديّة. وضمّ أوكتافيانوس مقاطعة سوريّة إليها.

(ملاحظة: تتضارب هنا آراء المؤرّخين، إذ ذكر بعضهم أنّ حكم البلاد صار إلى أنتيباس، وأنّ ضمّ مقاطعة سوريّة إليها قد حصل لاحقًا، ونرى أنّ هيرودس أنتيباس هذا هو الذي أقدم على قطع رأس يوحنّا المعمدان. والواقع كما أراه أنا، أنّ روما أبقت على هيرودس أنتيباس كرئيس رُبع ولكنّها قلّصت من صلاحيّاته ووضعت بإزائه واليًا رومانيًّا).

ثالثًا: كويرينيوس والي اليهوديّة وحاكم سوريّة(٤٨) **(حوالي ٤٥ قبل الميلاد- ٢١ ميلاديّة)**

أصدر غايوس يوليوس أوكتافيانوس أوغسطس (٢٣ أيلول ٦٣ قبل الميلاد-١٩ آب ١٤ بعد الميلاد) أمرًا بإحصاء سكّان الإمبراطوريّة.

"**وفي تلك الأيام، صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يُكتتب جميع المسكونة. وجرى هذا الاكتتاب قبل ولاية كيرينيوس على سوريّة**"(٤٩).

من بعد نفي هيرودس أركيلاوس إلى بلاد الغال، ضُمّت مقاطعة سوريّة إلى اليهوديّة. وتوالى على إدارة شؤونها أربعة حكّام، كان كويرينيوس هذا ثانيهم، وأتى بعده فاليريوس غراتوس(٥٠)، ثمّ بيلاطس البنطي.

ينحدر كويرينيوس من أسرة نبيلة ومثقّفة. وتولّى العديد من المناصب في المملكة قبل أن يصل إلى حكم ولاية سوريّة.

عُيّن كويرينيوس قنصلاً عامًّا في العديد من الولايات بالشرق والغرب، الأمر الذي أكسبه معرفة واسعة لعقليّة الشعوب وأنماط حياتهم. وتميّز الرجل ابن الأسرة النبيلة بهدوئه وتروّيه ودرايته. كما كان إداريًّا من الطراز الرفيع. واستطاع أن يُريح بال أوكتافيانوس في مختلف المناطق والولايات التي انتُدب إليها. كما ربطته بالملك علاقة مودّة واحترام. وكان محطّ ثقة مجلس الشيوخ.

خلال فترة ولايته أسهم هذا الرجل في تطوير جميع الولايات التي أُنيطت به إدارتها. وهو الذيّ أشرف على عمليّة الإحصاء السكّاني الذي اعتُبر من إحدى منجزات أوكتافيانوس التي أنصفه التاريخ لأجلها، وأطلق على شهر آب اسمه (أوغسطس) تكريمًا لوفاته.

(٤٨) Publius Sulpicius Quirinius.

(٤٩) لوقا ٢: ١-٢.

(٥٠) Valerius Gratus.

بدأ كويرينيوس إحصاءه السكّاني، وهو الإحصاء الثاني، في كلّ من منطقة اليهوديّة وولاية سوريّة في السنة السادسة ميلاديّة، وتحديدًا فور خلع هيرودس أركيلاوس ونفيه إلى بلاد الغال. في بداية الأمر، لم يكن هذا الإحصاء سكّانيًّا بقدر ما كان ذا طابع اقتصاديّ وعسكريّ، وكانت من إحدى غاياته اكتشاف سرقات أركيلاوس وحصر أملاكه. وما إن اكتشف أتباع أركيلاوس أنّ الغاية من هذا الإحصاء تكمن في تحجيم دور الأسرة الأنتيباتريّة، اعتبروا أنّ الإجراءات التي اتّخذتها روما معادية لليهود، وتهدف إلى انتزاع حقوقهم. فهبّ أنصار أركيلاوس وكانت ثورة اليهوديّة، سنة ٦ ميلاديّة، التي اضطرّ الرومان لاستعمال العنف لقمعها(٥١).

أمضى كويرينيوس سنوات في هذه المنطقة، وبعد أن تقدّمتْ به الأيام، عاد إلى روما سنة ١٤ ميلاديّة، حيث أُكرم كثيرًا، ومات فيها سنة ٢١ ميلاديّة، وجرت له مراسيم دفن تُشبه الملوك(٥٢).

رابعًا: فيلبّس الأوّل بن هيرودس الأوّل رئيس الرُّبع وحاكم منطقتَي إيطورية وتراخونيتس أي مدن: بيت صيدا، هيبوس، قيصريّة فيلبّس أي بانياس الحاليّة، جبل حرمون (٤ قبل الميلاد- ؟ ميلاديّة)

"فلمّا سمع هيرودس قال: إنّ يوحنّا الذي قطعتُ أنا رأسه قد قام من بين الأموات. لأنّ هيرودس كان قد أرسل وأمسك يوحنّا وأوثقه في السجن من أجل هيروديّا امرأة أخيه فيلبّس لأنّه كان قد تزوّجها"(٥٣).

"في ذلك الزمان سمع هيرودس رئيس الربع بخبر يسوع، فقال لغلمانه إنّ هذا يوحنّا المعمدان قد قام من الأموات، ومن أجل ذلك هذه القوّات تُعمل به. لأنّ هيرودس كان قد أمسك يوحنّا وأوثقه وألقاه في السجن من أجل هيروديّا امرأة أخيه..."(٥٤).

"أمّا هيرودس رئيس الربع، فإذ كان يوحنّا يبكّته من أجل هيروديّا امرأة أخيه ومن أجل جميع الشرور التي كان يصنعها"(٥٥).

(٥١) "Par suite éclatera une révolte menée par un prétendu messie, Juda le Galiléen s'opposant à un recensement et au paiement de l'impôt. La révolte sera réprimée durement". Legrand Daniel, **Dictionnaire Chronologique d'Histoire Universelle De l'Antiquité**, éditions Legrand, p. 491.

(٥٢) Cfr Vigouroux Fulcran Grégoire, **Dictionnaire de la Bible**, contenant tous les noms de personnes, de lieux, de plantes, d'animaux mentionnés dans les Saintes Écritures, les questions théologiques, archéologiques, scientifiques, critiques, relatives à l'Ancien et au Nouveau Testament, Tome II, première partie C. Letouzey et Ané, Paris, 1899. Col. 1186-1191.

(٥٣) مرقس ٦: ١٦-١٧.

(٥٤) متّى ١٤: ١-٢.

(٥٥) لوقا ٣: ١٩.

نادرة هي الوثائق التي تتكلّم عن هذا الرجل. ولكنّه اتخذ اسم أبيه، وعُرف بهيرودس فيلبّس الأوّل.

تزوّج باكرًا من هيروديّا الشهيرة بجريمة النبيّ يوحنّا المعمدان. وكانت هذه من الدهاء بمكان بحيث استطاعت التلاعب بعواطفه وخداعه لفترة، لم يلبث بعدها أن طلّقها، وكان قد أنجب منها ابنة هي سالومة التي دخلتْ ورقصة وطلبتْ رأس المعمدان.

بدأت الشبهات تحوم حول علاقة غريبة بين هيروديّا زوجته وأخيه أنتيباس، ولكنّه بقي صابرًا ينتظر دليلاً على خيانة زوجته.

وما إن انطلق في رحلة إلى روما، حتّى هرعت زوجته إلى أحضان أخيه بشكل فاضح وعلنيّ. وعندما عاد من روما أُخبر بأمر الخيانة، فطلّقها وراحت للتزوّج من أخيه هيرودس أنتيباس. **"تصرّفت هيروديّا بشكل مخالفة لشريعة آبائنا، فتزوّجت هيرودس شقيق زوجها من أبيه نفسه"**(٥٦).

(ملاحظة هامّة: لقد خلط الكثيرون من المؤرّخين وخاصّة العرب بينه وبين فيلبّس الثاني الذي عُرف عنه بأنّه كان هادئًا وحكيمًا، وقد اتّسم حكمه بالازدهار والعمران، وهو الذي شيّد مدينة قيصريّة الجديدة التي عُرفت باسمه "قيصريّة فيلبّس"، وقد ذكرها كلٌّ من الإنجيليّين متّى ومرقس: **"ثمّ خرج يسوع وتلاميذه إلى قُرى قيصريّة فيلبّس"**(٥٧). **"لمّا جاء إلى نواحي قيصريّة فيلبّس سأل تلاميذه قائلاً: مَن يقول الناس إنّ ابن البشر هو"**(٥٨).

خامسًا: فيلبّس الثاني بن هيرودس الأوّل رئيس الربع وحاكم منطقتَي إيطورية وتراخونيتس أي مدن: بيت صيدا، هيبوس، قيصريّة فيلبّس أي بانياس الحاليّة، جبل حرمون (؟-٣٤ ميلاديّة)

هو أيضًا ابن هيرودس الأوّل من زوجته كليوباترا. ولا تُعرف بالتحديد كيفيّة وصوله إلى تسلّم الحكم مكان أخيه فيلبّس هيرودس الأوّل، ولا متى. اتّخذ بدوره اسم أبيه، وعُرف بهيرودس فيلبّس الثاني.

تزوّج من سالومة ابنة هيروديّا الراقصة الشهيرة التي طلبت رأس يوحنّا في صحفة. واشتهر بصداقته مع الرومان، وبمساعدتهم أعاد بناء بيت صيدا في الجليل الأعلى.

كما اشتهر بالرويّة والفطنة وحُسن الإدارة. وشيّد مدينة قيصريّة التي عُرفت باسمه

---

(٥٦) Flavio Giuseppe, Antichità Giudaiche, Libro XVIII: 136.

(٥٧) مرقس ٨: ٢٧.

(٥٨) متّى ١٦: ١٣.

"قيصريّة فيلبّس". وصكّ النقود ووضع عليها صورة القيصر الرومانيّ، الأمر الذي اعتُبر نوعًا من الاستقلاليّة في الحكم، ولكنّه واجه رفض الشارع الفقير الذي يبحث عن لقمة العيش لا عن أمجاد مسروقة من مال الشعب. فأراد الموالون له استغلال الحدث، ومعرفة رأي الشارع، والتأثير عليه، وإخماد نار احتجاجاته. ومَن مثل زعيم الفقراء يمكنه التأثير على الناس!

أرسل الفريسيّون "**تلاميذهم إليه والهيرودوسيّين قائلين: يا معلّم قد علِمنا أنّك محقّ وتُعلّم طريق الله بالحقّ، ولا تُبالي بأحد، ولا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظنّ! هل يجوز أن نُعطي الجزية لقيصر أو لا**".

وفاتهم أنّ يسوع كان يعرف موقف الشعب المظلوم ورأيه: "**فعلم يسوع شرّهم... فقال لهم: أروني نقد الجزية، فأتوه بدينار". كانت تلك المرّة الأولى التي يرى فيها يسوع العملة الجديدة، ولذلك طلب رؤيتها: "فقال لهم يسوع: لمَن هذه الصورة والكتابة...**"(٥٩).

وقوي نفوذ أتباع فيلبّس هيردوس الثاني وزاد عدد الموالين، غير أنّ ضغط الشعب أبقاه متسامحًا إلى حدٍّ كبير، ولم تعرف فترة ولايته قتلاً وفتكًا كما كانت حال والده، وحال أخيه أنتيباس.

سادسًا: أنتيباس بن هيرودس الأوّل رئيس الربع وحاكم منطقتَي الجليل الأعلى وأجزاء من لبنان أي مدن: نائين، الناصرة، جبل ثابور، قانا، طبريّة، مجدلة، كفرناحوم، جبل الكرمل، عكّا، صور، صيدون، صرفت صيدا (٤- ٣٩ ميلاديّة)

وصل إلى الحكم مع أخويه أركيلاوس وفيلبّس الأوّل، واتّخذ هو أيضًا اسم أبيه، وعُرف بهيرودس أنتيباس. وهو ابن السامريّة مالثيس. اشتهر بمكره وخُبثه وإلحاده أكثر من أبيه.

تزوّج ابنة ملك منطقة آدومية (الأردن)، ولكنّه سرعان ما وقع في غرام زوجة أخيه هيروديّا التي سيطرتْ على أنفاسه، وأسهمت في إكمال ما نقص من الشرّ والفساد في نفسه.

ارتبط هذا الرجل بعلاقة وطيدة مع تيباريوس قيصر خليفة أوكتافيانوس. ولكي يُظهر ولاءه المطلق للقيصر، قام بتشييد مدينة تيبيريا (طبريّة) على الشاطئ الغربي لبحر الجليل، هذه المدينة التي سرعان ما ستتحوّل إلى معقل للفساد الاجتماعيّ والانحلال الأخلاقي. وستحظى باهتمام يسوع.

حرب طاحنة سيشنّها رجلان من أصحاب النفوذ الواسع بين الناس: يوحنّا المعمدان ويسوع على الحاكم الفاسد. حرب لو أرادها الاثنان دامية، لكانا ينجحان في تحريض الناس عليه، وبالتالي إسقاطه.

---

(٥٩) متّى ٢٢: ١٥-٢٢.

حوّل أنتيباس قصره إلى بيت للدعارة والفسق والسُكر. وعاث فسادًا يكاد يكون أضخم من الفساد الذي خلّفه والده هيرودس الأوّل (الذي عُرف بالكبير). وسيطر بشكل كامل على الكهنة وشيوخ الشعب.

انتشر الجوع بين الناس، وهلك كثيرون من المرض والفاقة، وهذا يُعطي الجواب عن السؤال: لماذا صنع يسوع معجزات خاصّة بالفقراء وسدّ عوز في الجليل الأعلى: "**بعد ذلك، انطلق يسوع إلى عبر الجليل وهو بحر طبريّة... وأخذ يسوع الأرغفة وشكر وقسم على المتّكئين وكذلك السمكتَين...**"(٦٠).

أمام هذه المعجزة تحرّك الناس لإسقاط نظام أنتيباس وهاجوا وأرادوا الهجوم على قصره وقتله "**وإذ علم يسوع أنّهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ويُقيموه ملكًا، انصرف إلى الجبل وحده**"(٦١).

فكيف لا يُمسك بيوحنّا المعمدان ويقتله! وكيف لا يُخطّط لقتل يسوع! وفي الحالتَين كان جبانًا. وطالما كان الجُبنُ من سمات الطغاة.

حاول استغلال فرصة وجود يسوع ضمن الرقعة الجغرافيّة لولايته "**وكان يجتاز في المدن والقرى يُعلّم وهو سائر إلى أورشليم**"(٦٢)، ولكنّ يسوع كان عارفًا بمخطّطه قبل أن يفاتحه بعض الفريسيّين بموضوع نيّة أنتيباس، ودار بينهم الحديث التالي: "**في ذلك اليوم، دنا إليه قوم من الفريسيّين وقالوا له: أُخرج واذهب من هنا فإنّ هيرودس يُريد قتلك. فقال لهم: اذهبوا وقولوا لهذا الثعلب، ها أنا أُخرج الشياطين، وأُجري الشفاء اليوم وغدًا، وفي اليوم الثالث أُكمَّل. ولكن ينبغي لي أن أسير اليوم وغدًا والذي بعده لأنّه لا يُمكن أن يهلك نبيّ خارج أورشليم**"(٦٣).

استمرّ حكم أنتيباس أكثر من عقدَين، حوّل خلالهما كلّ ما هو مقدّس إلى فاسد، حتّى إنّ بيلاطس نفسه الذي خلف كويرينيوس سعى جاهدًا للإطاحة به، ودامت العداوة بينهما طويلاً، ثمّ انتهت بالصُلح بعد تسليم يسوع "**وتصادق هيرودس وبيلاطس في ذلك اليوم، وقد كانا من قبل متعاديَّين**"(٦٤).

غير أنّ هذه الصداقة مع القيصر والولاة الرومانيّين لم تدم لفترة طويلة، فقد كان عمّه ملك آدومية ينتظر الفرصة السانحة للانتقام منه بعد إذلاله لابنته وتطليقها، وعندما رأى الأجواء سانحة، قاد جيشًا قويًّا وهجم نحو الجليل، وكاد أن يُطيح به وبولاية فلسطين كلّها لولا دعم أخيه

(٦٠) يوحنّا ٦.
(٦١) يوحنّا ٦: ١٥.
(٦٢) لوقا ١٣: ٢٢.
(٦٣) لوقا ١٣: ٣١-٣٣.
(٦٤) لوقا ٢٣: ١٢.

هيرودس فيلبّس الثاني الذي حشد جيوشه في وجه جيوش الملك القادم من منطقة الأردن، وحصلت خيانات واسعة في صفوف جيش هيرودس فيلبّس، وكادت الحرب تنتهي لصالح ملك الأردن لولا تدخّل روما وعزل أنتيباس.

أنهى أنتيباس حياته في المنفى ببلاد الغال، وخلفه في الحكم هيرودس أغريباس.

سابعًا: هيروديّا وتخطّي جميع الأعراف الأدبيّة والدينيّة (؟- ٤٠؟ ميلاديّة)

مَن يمكنه أن يتخيّل أن هيروديّا هذه يمكن أن تكون حفيدة هيرودس الأوّل الجدّ، أي والد أركيلاوس وفيلبّس وأنتيباس؟ إنّها ابنة أرسطوبولس الابن الأكبر لهيرودس الأوّل الذي عندما وُلدت ابنته هذه ومنحها اسم جدّها، لم يخطر بباله أنّ والده سيقتله في يوم من الأيام!

ومَن يستطيع أن يتخيّل أن تكون قد تزوّجت أوّلاً من عمّها فيلبّس الذي طلّقها، ثمّ أقدمت على الزنى مع عمّها الثاني أنتيباس، ثمّ تزوّجته؟

لا شكّ في أنّ تأنيب المعمدان لهيرودس أنتيباس لم يكن لمجرّد أنّها تزوّجت من شقيق زوجها، بل لفجورهما وتخطّيهما لجميع القوانين والأعراف الدينيّة والإنسانيّة.

كان الملك يعرف تمام المعرفة الالتفاف الشعبيّ وراء يوحنّا "**فكان يُريد أن يقتله، فخاف من الجمع لأنّ يوحنّا كان عندهم نبيًّا**"(٦٥). وكيف لا يكون نبيًّا ولا يزال الجيل القديم من اليهود يتذكّر والده الكاهن البارّ زكريّا. فإذا لم يكن الالتفاف حوله بسبب مواقفه البطوليّة كافيًا، هناك سبب إضافيّ يكمن في تاريخ أسرته الطيّبة.

وكانت خطّتها أن تقتل زوجة أنتيباس ابنة ملك آدومية لولا تدخّل فيلبّس الذي هرّبها إلى بلادها. وكانت الحرب مع ملك آدومية.

وعندما نُفي زوجها إلى بلاد الغال، ذهبت معه وماتت هناك.

ثامنًا: ليسانيوس رئيس الرُبع(٦٦) **على أبيلينة أي مدن: بيت عنيا الأردنيّة، فيلادلفيا الأردنيّة، يبّوق، جراس**

"**في السنة الخامسة عشرة من مُلك تيباريوس قيصر حين كان بيلاطس واليًا على اليهوديّة، وهيرودس رئيس رُبع على الجليل، وفيلبّس أخوه رئيس رُبع على إيطورية وبلاد تراكونيتس، وليسانيوس رئيس رُبع على أبيلينة**"(٦٧).

---

(٦٥) متّى ١٤: ٥.

(٦٦) Lysanias.

(٦٧) لوقا ٣: ١.

حاكم غير يهوديّ من منقطة الأردن من سكّانها الأصليّين، لا يُعرف عنه الكثير.

بعد موت هيرودس الأوّل، تمّت إعادة بعض أجزاء مملكته إلى سكّانها الأصليّين (أبيلينة) ولكنّ الأمر لم يدم طويلاً إذا أُعيد ضمّها في فترة لاحقًا(٦٨).

تاسعًا: الوالي أو الحاكم بيلاطس البنطي(٦٩) (والي اليهوديّة ٢٦-٣٧ ميلاديّة) وزوجته كلوديا بروكولا(٧٠)

"**في السنة الخامسة عشرة من مُلك تيباريوس قيصر حين كان بيلاطس واليًا على اليهوديّة، وهيرودس رئيس رُبع على الجليل، وفيلبّس أخوه رئيس رُبع على إيطورية وبلاد تراكونيتس، وليسانيوس رئيس رُبع على أبيلينة**"(٧١).

غريب هو أمر المراجع التاريخيّة التي تتكلّم عن هذا الرجل! إنّها بمعظمها يهوديّة ومسيحيّة!

"**في السنة الخامسة عشرة من مُلك تيباريوس قيصر**".

بدأ حُكم تيباريوس قيصر في السنة الرابعة عشرة ميلاديّة، وإذا أضفنا إلى هذا التاريخ خمسة عشرة سنة، يكون تولّيه إدارة اليهوديّة في السنة التاسعة والعشرين ميلاديّة بحسب إنجيل لوقا. وإذا حسبنا الفرق الحاصل في التقويم الذي وُضع سنة ٥٢٥ ميلاديّة، وفيه نجد أنّ السنة صفر ميلاديّة هي السنة الرابعة قبل الميلاد، فيكون بيلاطس هذا قد تولّى إدارة اليهوديّة في السنة الخامسة والعشرين ميلاديّة. وبالتالي، لا وجود لخطأ تاريخيّ في إنجيل لوقا.

ولكنّ الغريب في الأمر هو أسلوب بيلاطس الاستفزازيّ الواضح لليهود منذ وصوله إلى البلاد وحتّى تاريخ مغادرته.

اتّسمتْ إدارته للبلاد بقلّة الحكمة والفطنة، ربّما لأنّه كان غريبًا عن المنطقة! وعلى امتداد فترة ولايته لم يتوقّف الصراع بينه وبين الأسرة الهيرودية.

كشف بيلاطس، باكرًا جدًّا، فساد المجتمع اليهوديّ، ولم يجد بُدًّا من ممارسة العنف للحدّ من ظاهرات الفساد هذه، الأمر الذي أكسبه عداء اليهود، ووضعه في مواقف حرجة كان أصعبها قرار صلب يسوع.

فمَن هو هذا الرجل؟ وهل أراد فعلاً إنقاذ حياة يسوع؟

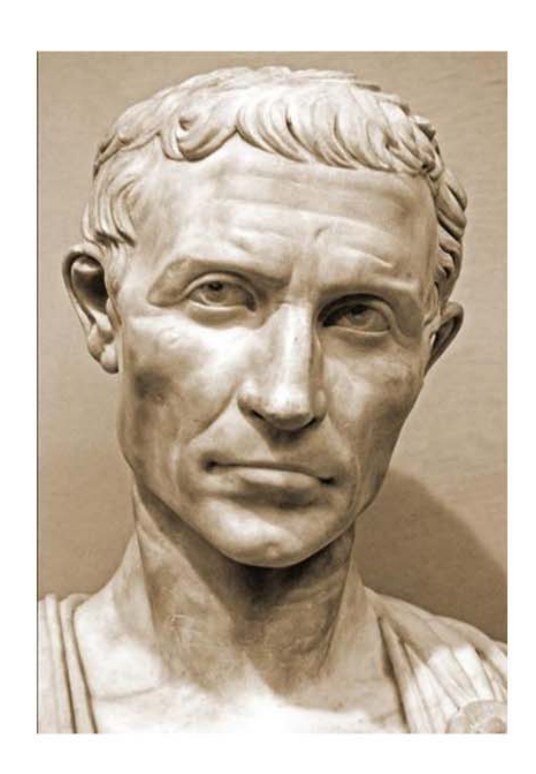
---

(٦٨) Cfr Vigouroux Fulcran Grégoire, Dictionnaire de la Bible..., vol. IV, première partie L-Mezuza..., 1912, col. 455-457.

(٦٩) Pontius Pilatus.

(٧٠) Claudia Procula.

(٧١) لوقا ٣: ١.



بيلاطس البنطي

لا يُعرف تاريخ ميلاد بيلاطس، ولا يمكن تحديد مكانه. وقد أخطأت جميع الترجمات العربيّة في نقل اسمه إلى العربيّة، فأطلقت عليه اسم "بيلاطس البنطي" الأمر الذي أوقع كثيرين من المؤرّخين في اعتبار "البنطي" لقبًا يدلّ على أصله، أي "البنطس" في أقصى شمال آسيا الصغرى (تركيّا الحاليّة). ولكنّه، في الحقيقة من إيطاليا الوسطى، وينتمي إلى أسرة بونتياس(٧٢) التي كانت واحدة من الأُسر الرومانيّة النبيلة في تلك الحقبة، وبالتالي، وجب أن يُترجم اسمه بـ "بيلاطس البونتياسي" أو "بيلاطس بونتياس". غير أنّ بعض المؤرّخين يعتبرون لقب "البنطي" مشتقّ من "بنتا"(٧٣) وتعني "خمسة"، للدلالة على أنّه خامس حاكم رومانيّ يحكم منطقة اليهوديّة. ويرى آخرون أنّ هذا اللقب يعني "الجسر أو القنطرة"(٧٤).

مجهولة هي حياته قبل تعيينه واليًا على منطقة اليهوديّة، ولكنّه، على الأرجح، كان يشغل مناصب رفيعة في البلاط الملكي، الأمر الذي فسح له في المجال ليُعيّن في مثل هذه المهمّة.

وكان بيلاطس متزوّجًا لأنّه "عندما كان جالسًا على كرسيّ الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذاك البارّ، لأنّي تألّمتُ اليوم كثيرًا من أجله"(٧٥).

(٧٢) Pontias.

(٧٣)Penta.

(٧٤) Ponte.

(٧٥) متّى ٢٧: ١٩.

ويُقال إنّه كان من أبناء طبقة الفرسان، وهي الطبقة الوسطى بين الرومانيّين. وعلى الأرجح أنّه ورث مقدارًا من الثروة اللازمة لتأهيله لهذا الموقع. لا بدّ، إذًا، من أنّه قد تولّى سلسلة من الوظائف المدنيّة أو العسكريّة قبل أن يصبح خامس والٍ رومانيّ على اليهوديّة.

اصطحب بيلاطس زوجته معه إلى اليهوديّة. وكانت ولايته تشمل السامرة واليهوديّة، أي مملكة أركيلاوس السابقة، بالإضافة إلى الجزء الجنوبيّ حتّى غزّة والبحر الميت. وكان يجمع بين يديه المسؤوليّات العسكريّة والإداريّة. وكان رئيسه المباشر هو الحاكم الرومانيّ لسوريّة، ولكنّنا لا نعرف تمامًا طبيعة العلاقة التي كانت بينهما.

كانت سلطة بيلاطس على جميع الناس في منطقته، عدا المواطنين الرومانيّين، سلطة مطلقة بالفعل، مع الاحتفاظ بنوع من الحريّة والحكم الذاتيّ لليهود، وخاصّة في مجال القضاء، فقد اختصّ مجمع السنهدريم في أورشليم بمثل هذه القضايا، عدا إصدار الحكم بالموت، الأمر الذي كان يحتاج إلى موافقة الوالي الروماني.

وبسبب المشاكل السياسيّة والدينيّة في ولاية اليهوديّة، كانت هذه الولاية، من وجهة نظر روما، تُصدّر الكثير من المشاكل للخارج.

منذ وصوله إلى منطقة اليهوديّة، ظهر بيلاطس بمظهر الرومانيّ المتصلّب والمتعصّب، وأراد تطبيق القوانين الرومانيّة بحذافيرها على اليهود، فقام بنصب تماثيل الأباطرة الرومانيّين وصورهم، "**كان أوّل مَن أدخل التماثيل** (الأباطرة) **إلى أورشليم، ووضعها في أمكنة عالية...**"(٧٦)، وهو أمر مرفوض بحسب الشريعة اليهوديّة. كما بالغ في إساءة معاملة اليهود بأن أرسل جنودًا رومانيّين إلى أورشليم يحملون ألوية رومانيّة عسكريّة عليها شعارات يعتبرها اليهود وثنيّة. وسقط فريسة مقاومة عنيدة من اليهود، فسعى لإخمادها بالتهديد بقتل المعارضين "**فسقط كثيرين على الفور**"(٧٧). وإذ استمرّت معارضتهم على تصلّبها، اضطرّ في النهاية إلى الإذعان لمطالبهم.

كما أثار بيلاطس، بعد ذلك، حقد اليهود، باستيلائه على أموال "الهيكل" أي التقدمات والعطايا التي تُلقى في خزانة الهيكل، ليموّل بها عمليّة إنشاء قناة مائيّة طولها خمسة وعشرون ميلاً، لتمدّ أورشليم بالماء من مرتفعات جنوبي المدينة، فاعتبر اليهود ذلك تدنيسًا للمقدّسات، وكان ردّ فعلهم عنيفًا، فقتل جنود بيلاطس عددًا كبيرًا من مثيري الشغب. ولعلّ هذا هو العمل الوحشيّ الذي أشار إليه لوقا: "**في ذلك الزمان، حضر قوم وأخبروه عن الجليليّين الذين خلط بيلاطس دماءهم بذبائحهم**"(٧٨).

---

(٧٦) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XVIII: 55.

(٧٧) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XVIII: 62.

(٧٨) لوقا ١٣: ١.

أمّا مركز بيلاطس السياسيّ، فقد انهار بسبب حماقته، وزعم أحد السامريّين، في يوم من الأيام، بأنّه يعرف مكانًا على قمّة جبل جرزيم خبّأ فيه موسى الآنية الذهبيّة الخاصّة بخيمة الاجتماع، وهو زعم ينمّ، بالطبع، عن جهل وتعصّب، لأنّ موسى لم يعبر نهر الأردن مطلقًا، وبالتالي فلا يمكن أن يكون قد زار جبل جرزيم. ولكن بناءً على هذا الزعم الكاذب، اجتمع جمع غفير من السامريّين عند سفح الجبل بقصد تسلّقه إلى القمّة للبحث عن الكنوز المزعومة، ولغبائهم كانوا يحملون أسلحة معهم، ففسّر بيلاطس ذلك على أنّه تهديد بعصيان مسلّح، فقتل جنوده الكثيرين من السامريّين.

على أيّ حال كانت عمليّة جبل جرزيم مجرّد حادث عابر، ولم تشكّل تهديدًا جديًّا للحكم الرومانيّ في فلسطين. ولكنّ العدد الذي قتله بيلاطس من السامريّين كان كبيرًا حتّى إنّهم رفعوا شكوى ضدّه إلى رئيسه فيليتّيوس(٧٩) الحاكم الرومانيّ على سوريّة، فخلعه فيتليوس عن ولاية اليهوديّة، وأمره بالذهاب إلى روما ليحاكم أمام الإمبراطوريّة على تصرّفه المتهوّر في موضوع جبل جرزيم. وبذلك انتهت ولاية بيلاطس على اليهوديّة.

ومات الإمبراطور تيباريوس في السادس عشر من آذار سنة ٣٧، قبل وصول بيلاطس إلى روما. ويبدو أنّ بيلاطس قد أفلت من المحاكمة، بموت الإمبراطور.

ويعتبر المؤرّخون أنّ الروايات التي حيكت حول بيلاطس بعد وصوله إلى روما، محض خيال تعتورها الشكوك. والقول المرجح هو إنّه نُفي إلى مدينة فيينّا في بلاد الغال حيث انتحر في النهاية. وهناك رواية أخرى تقول إنّ تيباريوس قيصر قد أصدر على بيلاطس حكمًا بالإعدام، وأنّ بيلاطس أعلن توبته قبل تنفيذ الحكم عليه.

وفي جميع الأحوال، يعود له الفضل في جعل أورشليم عاصمة ولاية اليهوديّة.

عندما زادت الخلافات بينه وبين اليهود، نقل بيلاطس العاصمة من مدينة قيصريّة التي على الساحل السامريّ إلى أورشليم، وقد أسهم بتصرّفه هذا، وإن كان غير مقصود، في إسداء خدمَتين: الخدمة الأولى، لبعض علماء اليهود الذين اعتبروا أنّ الحدث إشارة واضحة على تحقيق نبوءات العهد القديم بتأسيس مملكة اليهود الجديدة التي سيملك عليها المسيح المنتظَر، إذ قد رأوا في الحدث تحقيقًا لنصّ سفر التكوين: "**لا يزول صولجان من يهوذا ومُشترع من صُلبه حتّى يأتي شيلو وتُطيعه الشعوب**"(٨٠). وليس "شيلو" إلاّ ترجمة حرفيّة لأداتَي اللاتينيّتَين (quae, ille) ومعناهما "الذي، هو"، وترجمتها "ذاك"، فيكون النصّ "لا يزول صولجان من يهوذا ومُشترع من صُلبه حتّى يأتي ذاك وتُطيعه الشعوب"، وهو الملك الغريب (أي بيلاطس) الذي سيحكم أرض اليهود.

---

(٧٩) Vilettius.

(٨٠) تكوين ٤٩: ١٠.

والخدمة الثانية، ليسوع المسيح الذي سيدخل العاصمة ملكًا.

أدار بيلاطس، إذًا، تلك المنطقة بيد من حديد. ولكنّ نهايته كانت مخزية.

وسُرعان ما حيكتْ عنه الأقاصيص، التي عُرف أشهرها أنّه وضع كتابًا عُرف باسم "كتاب أعمال بيلاطس"، واسم هذا الكتاب من الناحية العلميّة "إنجيل نيقوديمس"، وهو يروي قصّة الآلام، ويعود إلى القرن الخامس الميلادي، و"رسائل بيلاطس وهيرودس".

وقد تُرجم إنجيل نيقوديمس إلى مختلف اللغات ومن بينها العربيّة.

أمّا زوجته كلوديا فلا يُعرف عنها شيء، سوى ما ورد عنها حصريًّا في إنجيل متّى، وبدون أيّ ذكر لاسمها: "**وإذ كان** (بيلاطس) **جالسًا على كرسيّ الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك الصدّيق، لأنّي تألّمت اليوم كثيرًا في الحلم من أجله**"(٨١).

أمّا اسم كلوديا، فقد ورد لأوّل مرّة في رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس: "**يُسلّم عليك أوبولس وبودس ولينس وكلودية والإخوة أجمعون**"(٨٢). واعتبر بعض المؤرّخين أنّ كلوديا هذه هي نفسها زوجة بيلاطس وقد اعتنقت المسيحيّة. ولاحقًا أعلنتها بعض الكنائس الشرقيّة قدّيسة، وحدّدت يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأوّل تذكارًا لها. كما اعتبرت الكنيسة الإثيوبيّة كلاًّ من بيلاطس وزوجته كلوديا قدّيسَين، وحدّدت يوم الخامس والعشرين من حزيران تذكارًا لهما.

عاشرًا: الرسالة المنسوبة إلى كلوديا زوجة بيلاطس

ليس من دليل تاريخيّ يُشير إلى أنّ زوجة بيلاطس قد تركت رسالة بخصوص يسوع. ولم يُعثر على اسم الصديقة التي أرسلتها إليها. غير أنّ اكتشاف مخطوط في أحد أديرة بروويج(٨٣) فتح الباب أمام جدل واسع. ونُقلت المخطوطة إلى مكتبة الفاتيكان حيث عمل على دراسته عدد من الباحثين، على رأسهم الأمريكيّة كاترين فان دايك(٨٤) التي قامت بترجمة نصّ الرسالة إلى الإنكليزيّة، ونشرته بسلسلة من المقالات في مطلع القرن العشرين، ثمّ نُشر كاملاً، سنة ١٩٢٩، وحمل عنوان (Relics of Repentance). وسرعان انتشر النصّ في العالم وتُرجم إلى مختلف اللغات، كانت العربيّة أقدمها.

ودخل نصّ الرسالة عالم السينما من بابه الواسع، فاستعمله كاتب سيناريو فيلم "الرداء" سنة ١٩٥٣، ثمّ استعمله كاتب سيناريوس فيلم "ملك الملوك" سنة ١٩٦١، ومؤخّرًا استعمله ميل جيبسون في فيلم "الآلام" سنة ٢٠٠٤.

(٨١) متّى ٢٧: ١٩.

(٨٢) ٤: ٢١.

(٨٣) Bruges.

(٨٤) Catherine van Dyke.

أضع الترجمة العربيّة التي نشرها الأرشمندريت ميخائيل ألوف(٨٥).

أيّتها الصديقة الأمينة،

سألتِني أن أَبسُط لكِ الحوادث التي تمَّت منذ افتراقي عنكِ، مع أنّ شهرة بعض هذه الحوادث قد وصلت، بلا شكّ، إلى مسامعكِ. والشرُّ الذي يخال أنّه يخفيها يجعلكِ في خوف عليّ. وبناءً على رغبتكِ أروي لكِ الوقائع التي تؤلّف سيرة حياتي. وإذا ما أثارت دهشتكِ، تذكرين أنّ السلطات العليا قد ظلّلت ولادتنا ووجودنا وموتنا، ولا يجوز للضعفاء المائتين أن يسبروا سرّ مقاصدهم (مقاصد السلطات العليا، وهنا المقصود بالسلطات هم الآلهة).

ولا كلام عن السنين الأولى التي صرفتها في ناربون(٨٦) (منطقة في بلاد الغول، فرنسا) في حمى الوالديّ وتحت ظلّ صداقتك، لأنّكِ تعرفين أنّني منذ أن تجاوزت السادس عشرة من عمري تزوّجت ببيلاطُس الرومانيّ وسليل عائلة شريفة عريقة في الأصل والنبل. وكان إذ ذاك في إيبارية صاحب وظيفة مهمّة.

وبعد خروجنا من مجلس العقد (مكان الإقامة والزواج) ترتَّب عليَّ أن أسير برفقته إلى مركز ولايته، ولشدّة أسفي على فراق الحمى الوالديّ هتفتُ من صميم فؤادي: يا سماء نربون السعيدة، أيّتها الآثار الجميلة ظلّ وطني الرطب أودعكنَّ والدموع تبلَّل جفنيّ...

ومضت الأيام الأولى من زواجي براحة وصفاء. ورزقتُ ابنًا هو أعزُّ إليّ من نور النهار. وكنت أمضي أوقاتي بين القيام بواجباتي وبين التمتّع بالملاذّ المسموح بها لأمثالي. ولمّا سمّي زوجي بروكونسلاً (أي حاكم) بامتياز خاصّ على اليهوديّة، كان ابني قد بلغ الخامسة من عمره. فانطلقنا مع عبيدنا وجوارينا إلى تلك البلاد حتّى إذا بلغنا يافا واندهشنا من خصب أرجائها الواقعة تحت ولاية زوجي ممثّل رومة سيّدة الشعوب.

وعشتُ في أورشليم بحالة من التكريم والتبجيل، ولكن في الوقت عينه كنت في وحدة تامّة، لأنّ العبرانيّين المتمسّكين بالأوهام والمتباهين بذواتهم كانوا يكرهون الوثنيّين الغرباء كما كانوا يُسمّوننا، ويظنّون بأنّنا بوجودنا هنا ندنّس الأرض المقدّسة التي ملّكها لهم إله آبائهم. وعليه كنت أصرف حياتي مع ابني في حدائقنا الخالية من الأنس حيث يعانق الريحانُ البطم (شجرة من فصيلة البطميّات تُشبه شجرة الفستق. أوراقها صغيرة تحتوي على مادة التربانتين)، وحيث تعلو أشجار النخلُ أكثر ممّا هي عليه منه في ديلوس (جزيرة صغيرة في الأرخبيل اليونانيّ كانت مصرفًا

---

(٨٥) **رسالة كلودية بروكولا زوجة بيلاطس إلى فولفيا هرسلينا**، المطبعة الأدبيّة، بيروت، ١٩١٠. معرّبة بقلم الأرشمندريت ميخائيل ألوف. وردت في إحدى المجلاّت الأوروبيّة وهي قد وجدت في كتب خطّيّة قديمة وتنسب إلى زوجة بيلاطس التي يعتبرها اليونانيّون بمثابة قدّيسة.

(٨٦) Narbonne.

للفينيقيّين خلال القرن الثاني قبل الميلاد، ومركزًا للحلف الذي سبق وترأّسته أثينا قبلاً خلال القرن الخامس قبل الميلاد. تشتهر بمعبد أبّولون)، قُبالة البرتقال والرمّان المزهر. هناك، في تلك الظلال كنت أوشي بالغواشي (تُقال عن المرأة الداهية)، وأطالع أبيات فرجيل (٧١-١٩ قبل الميلاد. أعظم شعراء روما. ألّف الرعائيّات والفلاحيّات، وملحمة الأنياذة. رقيق الشاعريّة، موسيقي النَظْم، واسع المخيّلة) التي تشنّف (تُقال للحَلَق الذي يوضع في آذان النساء ويُزيّنها) الآذان ويطيب بها القلب. وفي الساعات النادرة التي كنت أجتمع فيها مع زوجي كنت أراه قلقًا منشغل البال.

ومهما يكن من قوّة عزيمته فقد كان أضعف من أن يتمكّن من إدخال حيّز الطاعة إلى ذلك الشعب الذي تعوّد على الاستقلال، وتتجاذبه ألف من مختلف الشيع التي تتّفق جميعها إلاّ على نقطة واحدة هي الكره الشديد للاسم الرومانيّ. وليس إلاّ عائلة واحدة مهمّة في أورشليم أبدت لي بعض المودَّة هي عائلة رئيس المجمع. على أنّني كنت أسرّ بزيارة زوجته صالومي لأنّي اختبرتها فوجدتها قدوة في الفضيلة والعذوبة. أمّا ابنتها سنيدا البالغة الثانية عشرة من عمرها فهي جميلة ولطيفة مثل ورد سارون الذي كانت تضفر به شعرها، وكانتا مرارًا تخاطباني عن إلههما وتنفحاني ببعض كراريس من كتبهما المقدّسة. وكنت غالبًا، يا عزيزتي فولفيا، بعد أن أسمع من صالومي آيات التعظيم والتفخيم عن الله العليّ الواحد العادم الهيولى المنـزّه عن الآلام والعيوب التي نعزوها غالبًا لآلهتنا، الله الرحيم القادر على كلّ شيء المتّصف في وقت واحد بالقوّة والرحمة والطهارة والعظمة، تشنِّف سنيدا آذاننا بصوتها الرخيم متّفقًا مع أنغام عودها اللذيذة. وهي تنشد تسابيح مقدّسة منظومة من أحد ملوك إسرائيل، وكنت أكرّر أنا إنشادها بعودي، كما إنّني في وحدتي كنت غالبًا أجثو على ركبتيَّ إزاء سرير وحيدي العزيز، وأستغيث، بحركة غير مقصودة بذاك الإله الذي يُطيعه القدر إطاعة العبد لمولاه، من أجل مَن هم بجانب قلبي في المعزّة العظمى، وكنت أراني متعزّية ومتقوّية بعد نهوضي.

ومنذ بضعة أيّام مرضَت سنيدا فعدتها بعض مرّات. وفي ذات صباح بلغني أنّها فارقت الحياة بدون نزاع بين يدي والدتها، فأحزنني الخبر جدًّا، وبعد أن قبّلتُ ولدي، ذهبت لأمزج دموعي بدموع صالومي الحزينة وأبكي الفتاة الفريدة الصفات. وما إن انتهيت إلى الشارع الواصل إلى بيتها حتّى شقَّ على حاملي سريري المرور فيه، لأنّه كان غاصًّا بالعازفين بالمزامير والنوادب والمعزّين والمتفرّجين، فوقفت في مدخل الدار وإذا بالجماهير قد انشقّت قسمَين وفتحت طريقًا أمام جوقة من الناس كانوا يحدّقون بها باندهاش واحترام، ورأيت في المقدّمة أبا سنيدا ماشيًا، وبدلاً من دلائل الحزن على وجهه الجليل كنت أتبيّن علائم الثقة العميقة برجاء غريب لم أقوَ على فهمه.

ووراءه شابٌ في مقتبل العمر يجلببه وشاح. وما إن وقع نظري عليه حتّى اجتذب نظري من حبال أعصابه فأطرقتها في الأرض حالاً منبهرة كمن نورٍ ساطع، وقد خُيّل إليّ أنّ جبهته تتلألأ بالضياء وأنّ إكليلاً من نور يحيط بشعره المرسل على كتفَيه على عادة الناصريّين.

وإنّني لأعجز عن وصف ما شعرت به من الجاذبيّة الساحرة والظافرة عند رؤيتي ذاك الشابّ، لأنّ وجهه كان يتدفّق حلاوة لا يصفها لسان أو قلم، ويُثير خوفًا داخليًّا، وفي عينيه لمعان فتّان.

لحقت به ولا أدري إلى أين... فانفتح أمامه باب وإذا بسنيدا راقدة داخله على فراشها يحيط بها الطيب، والمرّ وأواني العطر الذكيّ، وكانت جميلة وبهيّة، متمدّدة بسكون وصفاء. وكان جبينها أشبه بالياسمين المنثور على فراشها في امتقاع اللون. ولم تظهر عليها من علامات الموت سوى اصفرار الشفتَين وضعف الخدَّين.

وأمامها كانت صالومي جالسة صامتة خالية من الشعور خامدة، فنظرت إليَّ وخلتها لم ترني لشدّة ضغط الحزن على قلبها. أمّا الشابّ الغريب فوقف إزاء الفراش ويائيروس أبو الابنة رابض عند رجليه منحلّ العزيمة واهي القوى مشيرًا إلى الميتة إشارة أوضح من كلّ فصاحة وقال: يا سيّد إنّ ابنتي ماتت وإذا شئت فإنّها تحيا. عندما سمعتُ هذه العبارة تولّتني قشعريرة وتعلّقت جوانحي وعواطفي بما سينطق به الغريب. أمّا هو فأمسك بيد سنيدا وحدّق بها بباصريته الخارقَتين وهتف: يا ابنتي قومي. فيا فولفيا بمَ أصف لك الدهشة التي تولّتني عندما أطاعت سنيدا حالاً، وجلست في فراشها، وفتحت عينيها وظهر الاحمرار على شفتيها ومدّت بيدها وصاحت: أمّاه.

فتعانقت الوالدة والابنة طويلاً ويائيروس جاثٍ على ركبتيه، وإذ ذاك قبّل ذيل رداء الغريب الذي كان يدعوه معلّمه، وصاح: ماذا يجب أن أعمل لأخدمك وأرث الحياة الأبديّة؟ فأجابه: أن تعرف وتمارس وصيّتَي الشريعة: محبّة الله ومحبّة القريب.

وفي المساء شرحت لبنطس ما شهدته فهزّ رأسه وقال: أأنتِ شاهدتِ يسوع الناصريّ موضوع بغضاء الفرّيسيّين والصدّوقيّين وأحبارا لهيكل المتعجرفين؟ على أنّ حنقهم عليه يزداد يومًا فيومًا وهم يتهدّدونه كلّ يوم بالقتل انتقامًا، ومع ذلك فإنّ كلام الناصريّ كلام رجل حكيم وعجائبه عجائب إله.

إذًا لمَ يكرهونه؟

لأنّه أزال القناع عن نقائصهم وريائهم، ومستقبل الناصريّ مظلم.

أجبته: بحدّة أما تحميه ولك السلطان؟

أجاب: ليس سلطاني إلاّ خيالاً إزاء هذا الشعب العنيد، ومع ذلك يشقُّ عليّ أن أرى دم هذا الصدّيق يُسفك.

وإذ قال بيلاطس هذا، نهض مغمومًا أكثر من عادته. وبقيتُ وحدي عرضة للتفكير والاضطراب. وقبل الفصح بيوم واحد قال لي بيلاطس بحزن "إنّ آلهة القدر كاسفة لجهة يسوع الناصريّ. وحياته في خطر، وربّما إنّه يسلَّم في هذا المساء لأيدي رؤساء الكهنة".

ارتعدت فرائصي لدى استماعي إلى هذا الكلام، فقلتُ له: لا بدّ من أنّك ستخلّصه أنت بسلطانك.

فأجاب وهو عابس ومقطّب الوجه: هل ذلك بإمكاني؟ ودنَت ساعة النوم. وما إن ألقيتُ رأسي على الوسادة حتّى تولّت الأحلام مخيّلتي فرأيتُ يسوع الناصريّ. رأيته مثل الإله الذي كانت تمثّله لي صالومي. أبصرتُ وجهه يضيء مثل الشمس وهو جالس على أجنحة الشاروبيم وخدمهُ نار متسعرة. ثمّ خلته واقفًا على متون السحاب كأنّه على أُهبة محاكمة الجنس البشريّ المتجمّع عند رجليه. وبإشارة من يمينه انفصل الأبرار عن الأشرار، فصعد الأوّلون نحوه مسرورين، ومتمتّعين بجمال عادم الذبول. وتدهور الآخرون إلى وهدة ملؤها نار هادئة كنار فليجيتون(٨٧) وتينار، وبعد إذ أراهم الجروح التي كان مثخنًا بها جسمه قال لهم بصوتٍ جهير: أدّوا حسابًا عن الدم الذي سفكتُه لأجلكم. حينئذ أخذ المشجوبون يستغيثون بالجبال لتسحقهم، وبالأرض لتبتلعهم، وعبثًا كانوا يستصرخون بها لشعورهم بكونهم في عذابهم ويأسهم عادمي الموت. فيا للهول ما كان ذاك المنام أو بالأحرى ذاك الوحي.

ومع انبلاج الفجر الذي يُحمرُّ قمّة الهيكل، نهضت من فراشي منقبضةً واجفة، خافقة القلب خوفًا، وجلستُ إزاء النافذة أستنشق نسيم الصباح العليل، فخُيّل إليّ أنّ ضوضاء محزنة منبعثة من قلب المدينة. هناك صراخ وتجديفات وزمجرة تدوّي أكثر من دوي الأوقيانوس (أي المحيط) الهائج، فأعرتُ سمعي وقلبي يخفق. وجبيني مندًّ بعرق بارد، ثمّ شعرت بأنّ الضوضاء تقترب، وبأنّ حركة عظيمة وقرقعة وقع أرجلٍ لا يحصى عددها، على الدرج الذي ينتهي إلى المحكمة الرومانيّة، كانت تحصل، فشعرت بانقباض صدري حتّى كادت تزهق روحي، وقبضتُ على ابني الذي كان يلعب أمامي والقلب ملؤه حرارة. ولففتُه بقناعي وجئت إلى زوجي عدوًا على الأقدام.

وما إن بلغتُ إلى باب المحكمة الداخليّ حتّى سمعتُ دويًّا عظيمًا لأصوات كثيرة، فلم أتجرّأ على الدخول. غير أنّني رفعت البرادي التي تستر الباب، فوقع نظري على مشهد...

---

(٨٧) Phlégéthon اسم إحدى نيران جهنّم.

يا فولفيا أراعني وأحزنني، بل لا تزال أحزانه رافقني جميع أيام حياتي... رأيتُ بيلاطس جالسًا على عرش تحتفّ به الآبّهة التي توليها رومة لممثّليها. وتحت مظاهر سكون كان يحاول التزيّي به، تبيّنتُ أنّ فيه اضطرابًا داخليًا، وأنّ خلف السكون كانت عاصفة تجيشه في داخله. وكان يسوع الناصريّ ماثلاً بحضرته رابط الجأش، هادي البال، مكتوف اليدين، مبعثر الثياب، مهشّم الجبين، ولم تكن في وجهه سماتُ الكِبَر أو علائم الخوف، بل كان ساكنًا هادئًا مثل الطهارة، صبورًا مثل الضحيّة، وديعًا مثل الحمل، عذبًا ولا عذوبة اللطف والرقّة، غير أنّ حلاوته كانت تملأني خوفًا. وكنت أتخيّل الكلام الذي سمعته في الحلم يرنّ في أذني وهو: قدّم حسابًا عن الدم الزكيّ الذي سفكته لأجلك.

وحوله أخلاط من زمر الرعاع كانت قد قبضت عليه وكتّفته، وجاءت به إلى المحكمة وهي تزمجر وتزبد كالوحوش الضارية. وبينهم بعض الأحبار مع كتبة وفرّيسيّين يُعرفون من عُصبة الرقّ التي يعصبون بها جباههم وقد كُتبت عليها آيات من فحوى الشريعة. وكانت جميع تلك الوجوه المظلمة تضمر البغضاء والسوء. ويخال المرء أنّ انعكاس النور المشئوم كان يسطع في تلك الأبصار الحادّة النظر. وأنّ الأرواح الجهنّميّة تضيف صراخها إلى أصوات أولئك الأشرار. إلى أن ساد الصمت، أخيرًا، بإشارة من بيلاطس.

فقال لهم: ماذا تريدون منّي؟

فأجابه أحد الأحبار مترجمًا أفكار الجمهور: نريد إعدام يسوع الناصريّ هذا، وقد حكم عليه هيرودس بالموت، ونحن نرغب بأن تُثبّت هذا الحكم... أجاب بيلاطس: إنّني لا أرى ذنبًا لهذا الرجل، وبناءً عليه فأنا أريد أن أطلقه.

فأجاب الجمهور: اسلمه إلينا واصلبه.

ولم أعد أقدر أن أسمع أكثر من ذلك. ولكنّني دعوت عبدي وأرسلته إلى زوجي، والتمستُ منه أن يأذن لي بمقابلته. فغادر المحكمة وجاء حتّى إذا صار قريبًا منّي، فانطرحت على قدميه وقلت له: باسم كلّ مَن هو عزيز لديك. باسم هذا الغلام الذي هو عربون اتّحادنا المقدّس، احذر من أن تشترك في إعدام هذا الحكيم إذ قد رأيتُه هذه الليلة أشبه بالآلهة العادمة الموت في حلم، بل في وحي. ذا عظمة مطلقة يحاكم الناس المرتجفين أمامه بين الأشباح التعسة المتدهورة إلى قلب اللهيب. وقد عرفتُ وجوه الذين طلبوا قتله منك منذ هنيهة. فأحذّرك من أن تمدَّ إليه يدًا أثيمة فإنّ نقطة من دمه تختم صكّ هلاكك الأبديّ.

أجاب بيلاطس: ومع ذلك فلا أقدر أن أخلّصه فإنّ الكتيبة الرومانيّة الموجودة عندنا قليلة العدد. وهي حاجز ضعيف جدًّا ضدّ هذا الشعب الذي يخال أنّه مدفوع إلى إعدامه من الأرواح الشريرة. ومع ذلك سكّني روعك يا كلوديا وانزلي إلى البستان. واهتمّي بولدك لأنّ عينيك لم تتعوّد على رؤية مثل هذه المشاهد الدمويّة.

قال هذا وتركني فبقيت وحدي هدفًا لكآبة لم أقوَ على تبيّن عللها، ولم يزل يسوع واقفًا في المحكمة موضع الهزء والإهانة من الشعب والجند وكان حنقهم على قدر صبره غير المقهور.

وجلس بيلاطس على كرسيّ العدل مستغرقًا في الأفكار. فلمّا رأوه صاحوا طالبين إعدام الناصريّ. وكان صراخهم أحدَّ وأقوى من ذي قبل.

وبعد مشاهد مريعة تحاشيتُ رؤيتها، بدت من بيلاطس إشارة فشل، فاشتدّ الصراخ وعلا الضجيج وازداد أولئك الرعاع قحة، وبدت منهم علامات التهديد والازدراء بالاسم الرومانيّ الذي كان بيلاطس يغار عليه وليس مَن يحميه في أورشليم سوى آثار مجده الفخيم. على أنّ عدد الجند المنخرطين تحت لواء النسر الرومانيّ كان قليلاً. وكثر الصياح حتّى فاق دويّ ملاعب ومصارعات الفوروم (ساحات اللعب في روما) وأصبح الجمهور في هرج ومرج فلم أعد آنس سكونًا أو هدوءًا سوى في جبهة الناصريّ الرمزيّة. على أنّ الشتائم من جهة والتباريج من جهة أخرى كانتا تدنيانه من موت مرٍّ ومعيب. لكنّها لم تقوَ على تكدير صفاء نظره. وكانت عيناه اللتان أثّرَتان على ابنة يائيروس فبعثتها حيّة تنظران إلى جلاّديه بعاطفة حبّ وسلام لا يفي بهما وصف. لا شكّ بأنّه كان يحتمل ولكن بفرح. ويخال أنّ نفسه كانت ترتقي إلى الأرجاء غير المنظورة كأنّها لهيب ضحيّة طاهرة ومقدّسة.

وكانت المحكمة تغصّ بالجماهير المتزايدة، والتي كانت تزداد عددًا كأنّها جرف من المواد المقذوفة من البراكين أوّلها في جبل صهيون حيث الهيكل مبنيّ وآخرها في المحكمة. أخيرًا أُعييَ زوجي وخاف فسلّم... ويا للساعة السوداء والدائمة التعاسة، ساعة مخيفة تدوّنت في سجلّ الأبديّة! مَن يستطيع أن يصف هولها. وقام بيلاطس وعلائم المخاوف والارتياب بادية على جبينه. وبإشارة رمزيّة غسل يديه بإناء ملؤه ماء وقال بصوت مسموع وجهير: "إنّني بريء من دم هذا الصدّيق" أجابه الشعب: "دمه علينا وعلى أولادنا".

وتجمّعوا حول يسوع وأحاطوا به بسخط وضجيج وصراخ ولا صراخ المجانين. ونظري محدّق بتلك الضحيّة المزمع تقديمها. وإذا بغباشة حجبت بصري فارتخت أعصابي. ثمّ شعرت بانسحاق قلبي وتحطيم عظامي، فخيّل إليّ أنّ المنيّة قد دنت، وأنّ السماء قد اتّشحت بثياب الحداد مع عقلي المظلم. على أنّ الغيوم الخمريّة اللون المرعبة والمتلبّدة أخذت تقترب، وبدأ البرق الكالح اللون يتفجّر من جوانب الغيوم الكبريتيّة. وإذ ذاك صمتت المدينة التي كان يتصاعد منها الصياح والضجيج صباحًا، وخمدت حركتها. كان الموت قد نشر أعلامه السوداء في الشوارع والساحات، وخوف لم أدرك علله سمّرني على كرسيّ وابني في حضني. وكنت أنتظر ولا أعلم موضوع انتظاري.

ونحو الساعة التاسعة من النهار خيّم الظلام الحالك في شوارع المدينة فاستحال النهار إلى الليل. وفي إبّان تلك المخاوف دهمنا زلزال مخوّف زعزع الأرض. وأخذ الحضيض يرتجف فأيقنّا بانحلال عناصر المسكونة ورجوعها إلى العدم.

وإذ ذاك سقطتُ جاثية، ودخلت إحدى النساء العبرانيّات غرفتي ووجهها أصفر كالموت، مبعثرة الشعر وعيناها غائرتان وصرخت: لقد دنا اليوم الأخير والله أنبأ عنه بعجائبه وحجاب الهيكل الذي يغشى مذبح التقدمة انشقّ إلى قسمَين، والحزن سائد في المكان المقدّس وقد نمى إليّ أنّ القبور تفتّحت.

فلدى سماعي هذا الكلام خلت أنّ دوّارًا قد تولّى عقلي، فوقفت وأنا واهية القوى. ومشيت وأنا أهوي إلى اليمين واليسار حتّى بلغت الدرج وصادفت القائد الذي تولّى مهمّة الصلب. وهو رجل قد ابيضَّت لحيته في الحروب ضدّ العجم والجرمان. وما من قلب أشجع يضرب نبضه في صدر أعمر من صدره، فرأيته مع ذلك أصفر الوجه ذابلاً ومضطربًا من وخز ضميره ومخاوفه، فأردتُ أن أسأله عن علّة اضطرابه. لكنّه جاز أمامي وهو يكرّر القول: حقًّا إنّ هذا ابن الله.

ثمّ دخلت قاعة سفلى واطية السقف فرأيت بيلاطس جالسًا ورأسه بين يديه. فنظر إليّ وتنهّد وقال لي بصوت مرتبك: يا ليتني حميتُ هذا الصدّيق ببذل حياتي. فإنّ قلبي الحزين لن يذوق الراحة.

ولم أجسر على إجابته إذ لم يبقَ لي من تعزية في هذه المصيبة التي لا تداوى وقد ختمت علينا بالتعاسة الأبديّة.

وساد السكون ولم يشوّشُه سوى غلِّ الصاعقة التي كانت تنساب تحت أقبية القصر وتزيد في رعبي وكربتي، وبالرغم من تلك المخاوف جاء بيتنا شيخ وقور فدخل على بيلاطس وإذ مَثَل بحضرته انطرح على قدميه باكيًا وقال له: أنا يوسف الرامي جئت لأسألك أن تأذن لي برفع جسد يسوع الناصريّ عن الصليب ودفنه في قبري الخصوصيّ.

فأجاب بيلاطس: اذهب، ولم يتفرّس به.

فخرج الشيخ وإذا برهط من النساء مقنّعات ينتظرنَه تحت الأروقة فرافقنَه إلى الجلجلة. وهكذا انتهى ذاك اليوم المشؤوم، ودُفن يسوع في قبر منقور في الصخر ووضع على بابه حرس مؤلّف من أنفارٍ كثيرين.

مع ذلك يا فولفيا، إنّ الناصريّ قد خرج القبر بقوّته الخاصّة في اليوم الثالث لدفنه. انبعث كما تنبّأ، وظهر لعدد غفير من الناس وهذه الشهادة التي أدّاها عنه تلاميذه وقد أثبتوها بسفك دمهم في المحاكم بحضرة القضاة والملوك.

ومنذئذٍ امتُنع على زوجي أن يفوز بأمر على أنّه أصبح بتصرّفه هدفًا لملامة المشيخة الرومانيّة وتوبيخ طيباريوس. هدفًا لاحتقار اليهود وبغضاء الذين ساعدهم في إشباع ألم انتقامهم وقضى حياته في المرارة والحزن. أمّا أنا فانصرفت إلى الوحدة التامّة وكأنّني في قفرٍ أعيش ولا يدري بي أحد. وأمّا صالومي وسنيدا فلم تعودا تنظراني إلاّ بخوف وانقباض لكوني زوجة مُضطهد وجلاّد إلههما وقد صارتا تلميذتَين لذاك الذي بعث إحداهما حيّة لمسرّة قلب الأخرى. وكلّما دنوت منهما تبيّنت قشعريرة سريّة تظهر على وجهيهما بالرغم عن لطفهما. حينئذ امتنعت عن زيارتهما، وابتعدت عن الناس متأمّلة دومًا في كلام الناصري الذي كانت صالومي تكرّره على مسمعي. وقد دوّنته في الرفّ الموجود أمامي.

ولا تعزية لي سوى بتكرار تلاوته، وأُسرُّ إذا ما رفعت طرفي إلى السماء لأتصوّر ذاك الذي أماته اليهود وقد أضحى سميري في ذهني وعقلي.

وبعد بضعة شهور عُزل بيلاطس من وظيفته فجئنا إلى أُوروبّا تائهين جوّالين ننتقل من مدينة إلى مدينة، وبيلاطس حامل أبدًا أحمالاً من القلق والاضطراب ووخز الضمير وأنا أرافقه أنا (زوجة قايين، كما يقول العبرانيّون) التي كانت تتبع زوجها المنفيّ في الأرض.

إنّ صورة الصليب الملوّث بالدم الذي علّق عليه الصدّيق الطاهر حاضرة أمامنا وهي دائمًا نصب أعيننا، ولا أجسر أن أرفع نظري مخافة أن أراها ونغمة الصوت الذي به أبرز الحكم يرجفني ويوعبني رعبًا وغمًّا، وكلّما قدّم الخادم لبيلاطس آنية الغسل قبل الأكل يخال لي أنّه يغمس يديه لا في ماء طهور، بل في دم سخين يتصاعد بخارُه ولا يُمحى آثاره.

إنّ ابني وحيدي وحبيبي مات ولم أبكه، أما كان اسمه مكروهًا ومشؤومًا لو عاش، إنّه لسعيد في موته لإفلاته من اللعنة اللاحقة بنا. إنّ المسيحيّين انتشروا في كلّ مكان ومنهم أيضًا في بلاد الردون التي فيها نلجأ إلى بخار البحار وضبابها وخلوات القفار. وهنا اسمع مرارًا اسم زوجي يُذكر بكراهية...

إنّني سمعت بأنّ تلاميذ يسوع قبل تفرّقهم للتبشير بأناجيله دوّنوا في ترجمة اعتقادهم هذه الكلمة الناقمة: تألّم على عهد بيلاطس البنطيّ، وتلك لعنة المخوّفة تكرّرها الأجيال.

ودَّعتكِ يا فولفيا فارثي لحالي. قادر الله العادل على أن يمنحك كلّ السعادة التي كنّا نتمنّاها أحدانا للأخرى.

كلوديا

الفصل الخامس
عالم يسوع وأقرباؤه والشخصيّات المحيطة بحياته

أوّلاً: مذهب الصدّوقيّين

"في ذلك الزمان، دنا إليهم قوم من الصدوقيّين الذين يقولون بعدم القيامة وسألوه..."(٨٨).

ورد اسم الصدّويقيّين للمرّة الأولى في الأناجيل، الأمر الذي جعل المؤرّخين يُصرّون على الفكرة إنّهم مذهب (أو بدعة) انتشر خلال فترة القرن الأوّل الميلاديّ.

وقد اختلف المؤرّخون حول موضوع تحديد أصل اسم "الصدّوقيّين"، فقال بعضهم إنّه مشتقّ من اسم الفاعل "صادق"، ومعناه أصحاب الصدق والحقّ، وقال آخرون إنّ أتباع هذه المذهب يرجعون في أصولهم إلى الكاهن صادوق الذي كان من سبط اللاويّين وقد عيّنه الملك سليمان كاهنًا للهيكل(٨٩).

لن أستعرض هنا نقاشات الباحثين والمؤرّخين بشأن أصل الصدّوقيّين، وسألج فورًا في صُلب الموضوع.

كان عدد الصدّوقيّين، في مطلع رسالة يسوع، قليلاً بالمقارنة مع الفريسيّين. ولكنّهم كانوا الشريحة الغنيّة بين اليهود، وبالتالي كان لهم نوع من الحضور والاحترام في الأوساط الشعبيّة. إنّهم فئة أرستقراطيّة دينيّة، وكانوا يتنازعون مع الفريسيّين على السلطة الدينيّة. وعلى ما يبدو أنّ تأثيرهم على القاعدة الشعبيّة كان أقوى.

وبسبب انتمائهم إلى الطبقة الأرستقراطيّة، فقد حظي معظمهم بمستوًى علميّ أرفع، الأمر الذي جعلهم ينفتحون على الثقافة اليونانيّة ويتأثّرون بها. ووجد من بينهم بعض الكهنة في الهيكل. وكانت النقاشات تحتدّ بينهم وبين الفريسيّين تارة، وتهدأ تارة أخرى. وأسهم وجودهم في زيادة تطرّف الفريسيّين وتمسّكهم بالشريعة حرفيًّا.

ومع وصول هيرودس الأوّل إلى حكم منطقة اليهوديّة، ورؤيتهم لمظالمه، ازدادوا تصلّبًا في مواقفهم. وأسهم ملك اليهود هذا في إبعادهم عن دوائر صُنع القرار، فصاروا يرون في النظام الحاكم مجرّد زمرة من الطغاة يستعبدون الشعب.

لم يجمعهم أيّ رأي مع الفريسيّين إلاّ ذاك الذي اعتبر أنّ يسوع رجل خارج عن القانون، وأنّه يُشكّل خطرًا على الأمّة. ويعود السبب إلى أنّ معلوماتهم الأوّليّة كانت تُشير إلى تبنّي يسوع لبعض تعاليمهم. غير أنّ موقف يسوع المعلَن والصريح من الأغنياء، سرعان ما أثار حفيظتهم، فقد رأوا فيه تهديدًا مباشرًا على ارستقراطيّتهم.

---

(٨٨) متّى ٢٢: ٢٣.

(٨٩) راجع الملوك الأوّل ٢: ٣٥.

أمّا أفكارهم وطروحاتهم فيمكن تلخيصها بما يلي: ١- لا يمكن للأخلاق أن تقف عند حدود القوانين التي سنّتها الشريعة، بل هناك تقاليد وأعرافًا بين الناس يجب أن تنال حيّزًا في الموضوع الأخلاقيّ. ٢- أنكروا قيامة الموتى ووجود الملائكة والأرواح. وهناك روح واحد هو روح الله. ٣- لا وجود للثواب والعقاب بعد الموت. ٤- لا وجود للقدر، ولا علاقة لله بما يصنعه الإنسان من خير وشرّ. ٥- في حال سقوط أيّ إنسان في خطأ جسيم، لا يمكن الاكتفاء بما تفرضه الشريعة من عقاب، بل إذ كان لا بدّ من مضاعفة العقاب وبما فيه القتل، فيجب أن يُنفّذ. ٦- ونظرًا إلى رفضهم لفكرة القيامة، لا تنفع طقوس العبادة ولا التطهير بشيء.

وقد أدّت هذه الاعتقادات إلى مناقشات دائمة بينهم وبين الفريسيّين.

تكمن مشكلتهم مع كلّ من المعمدان ويسوع، في أنّ الاثنين لم يوفّراهم من انتقاداتهما اللاذعة، خاصّة في ما يختصّ بمعتقداتهم. وهم بدورهم سعوا إلى السخرية من تعاليم كلّ من يسوع والمعمدان. "**ولمّا رأى يوحنّا كثيرين من الفريسيّين والصدوقيّين يأتون إلى معموديّته**". وكان يعرف بأنّه لا يؤمنون بالتطهير ولا بالطقوس ولا بالقيامة والدينونة، هاجمهم قائلاً: "**يا أولاد الأفاعي مَن دلّكم على الهرب من السخط الآتي**"(٩٠).

كيف يمكن لله الذي لا يتدخّل في حياة الناس أن "**يُريهم آية من السماء**"(٩١).

وقع الصدوقيّون في مشكلة سياسيّة واجتماعيّة بانحيازهم لهيرودس وأسرته الحاكمة، وأدّى ذلك إلى انحسار حجم احترام الناس لهم. أمّا مَن بقي مخدوعًا بهم من الفقراء، فقد أسهم يسوع في إيقاظهم من سباتهم "**أنظروا وتحرّزوا من خمير الفريسيّين والصدوقيّين**"(٩٢)، وأردف "**وخمير هيردوس**"(٩٣).

ضرب الاثنان المعمدان ويسوع الصدوقيّين في العقيدة والتصرّف والمواقف. وبالتالي لن تكفي نصوص الشريعة للحكم عليهما، ويجب أن ينال كلّ منهما العقاب الأشدّ.

لم يطل أمد بقائهم كثيرًا، وكان مصيرهم إلى شبه زوال خلال السنوات ٦٠ إلى ٧٠ ميلاديّة.

ثانيًا: الفريسيّون

"**الويل لكم أيّها الكتبة والفريسيّون المرآءون...**"(٩٤).

يكفي الفصل الثالث والعشرين من إنجيل متّى ليُعرّفنا على نفسيّة هذه الزمرة الطاغية التي استعبدتْ الشعب لأجيال وأجيال.

---

(٩٠) متّى ٣: ٧.
(٩١) متّى ١٦: ١.
(٩٢) متّى ١٦: ٦.
(٩٣) مرقس ٨: ١٥.
(٩٤) متّى ٢٣.

يشتقّ اسم "فريسيّين" من الفعل العبريّ "باراش" ويعني "الانفصال أو الابتعاد"، وربّما يعني ذلك "ابتعادهم عن كلّ نجاسة". وتؤكّد أساليب حياتهم وانغلاقهم هذه النظريّة.

نشأ الفريسيّون حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وسِفرا عزرا ونحميا يُخبران عن بداية نشأتهم.

ويمكننا تلخيص أفكارهم بقاعدة واحدة: تطهير اليهود ممّا دخل عليهم من اختلاط عرقيّ عن طريق الزواج من أجنبيّين وأجنبيّات.

كثُر أتباع هذه الفكرة، وكان معظمهم من الكهنة والأحبار. ومع مرور الزمن، تحوّلوا إلى مدرسة لاهوتيّة وفكريّة، وسيطروا على الدين من مختلف جوانبه.

اعتبر هؤلاء أنّ جميع الناس يُشكّلون خطرًا على اليهود. ودعوا أتباع دينهم إلى الانفصال والابتعاد عن جميع الشعوب.

باختصار شديد، إنّهم مروّجو الانطوائيّة اليهوديّة، وبناة النـزعة العدائيّة في نفوس اليهود تجاه جميع البشر. فكيف لا يكون يسوع عدوّهم الأوّل والأعظم؟

ثالثًا: أسرة يسوع: يواكيم وحنّة، زكريّا وأليصابات وغيرهم

ورد ذكر يواكيم وحنّة لأوّل مرّة في إنجيل يعقوب المنحول، وهو الإنجيل الذي عُرف أيضًا باسم "التمهدي"[٩٥]، واسمه الحقيقيّ "ولادة مريم". وقد منحه العلماء اسم "التمهيدي" لأنّه يحتوي على قواسم مشتركة مع إنجيلَي كلّ من متّى لوقا.

"كثيرة الأناجيل المنحولة التي تصف طفولة يسوع، بينما لا تحتوي الأناجيل الرسميّة سوى بعض ملاحظات مختصرة جدًّا في هذا الموضوع. ويبدو أنّها مستمدّة كلّها من إنجيل يعقوب التمهدي، ومن إنجيل توما الخاصّ بالطفولة. وأصلها بحسب ب. بيترز (P. Peeters) مصدر سرياني فريد مكتوب قبل العام ٤٠٠ ميلاديّة. ربّما ضمّ كتابات مرجعها شرقيّ وحتّى بوذيّ. إلاّ أن ج. ميخل (J. Michl) يعتقد بوجود ممكن لكتيّب خاصّ بالطفولة الإلهيّ من القرن الثاني ميلادي. عنوان هذا الإنجيل مأخوذ من ترجمته اللاتينيّة على يد الراهب اليسوعيّ الفرنسيّ غيّوم بوستيل (Guillaume Postel) ١٥٥٢. ويبدو أنّه كُتب نحو العام ١٥٠ ميلادية. ويؤكّد وجوده يوستنيانوس، أوريجانوس وإقليموس الإسكندريّ. رفضه البابا جيلازيوس بقرار. يُقدّم المؤلّف نفسه، وقد يكون يهوديًّا متنصّرًا من الشتات، كشقيق يسوع من زواج أوّل ليوسـف.

(٩٥) Protévangile.

ويضمّ أقدم بيان في طفولة مريم، وتقديمها للهيكل، وولادة يسوع البتوليّة. احتُفظ بهذا النصّ في أصله اليونانيّ، وفي ترجمات سريانيّة وأرمنيّة وقبطيّة وسلافونيّة وعربيّة ولاتينيّة... مع تغييرات متعدّدة"(٩٦).

وابتداءً في مطلع القرن السادس انتشرت عبادتهما في الشرق والغرب. فمَن هما؟ وما هي صلة القرابة بينهما وبين زكريّا وأليصابات؟

"**وألِعازر ولد متّان، ومتّان ولد يعقوب، ويعقوب ولد يوسف رجل مريم المولود منها يسوع الذي يُدعى المسيح**"(٩٧).

هناك قاسم مشترك بين كلّ من جدّ العذراء مريم وجدّ يوسف. وهذا القاسم المشترك هو من الغرابة بمكان بحيث إنّ اسم جدّ يوسف "متّان"، واسم جدّ العذراء مريم "متّان" (مثّان).

أبدأ بجدّ العذراء مريم.

كان متّان، جدّ العذراء، كاهنًا يُقيم في بيت لحم. وتزوّج ولم يُنجب ذكورًا، بل ثلاث بنات، هنّ: مريم وصوبة (سوبة) وحنّة.

١- مريم الخالة الكبرى للعذراء

تزوّجت برجل من بيت لحم، وأنجبت يوسف خطيب والدة الإله، وحلفى ومريم سالومة (صالومة) وهي التي واكبت حياة يسوع، ورافقته إلى الصلب "**وكان أيضًا نساء ينظرنَ عن بُعد هنّ مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب الصغير وأمّ يوسى وسالومة**"(٩٨).

يوسف وحلفى وسالومة إذًا هم أولاد خالة العذراء مريم،

حلفى هو عمّ يسوع، وقد تزوّج من مريم.

وسلومة وهي عمّة يسوع. وقد تزوّجت من زبدى وأنجبت يعقوب "الكبير" ويوحنّا الذي عُرف بالحبيب.

٢- سوبة الخالة الوسطى للعذراء مريم

تزوّجت برجل من بيت لحم، وأنجبت أليصابات التي تزوّجت بزكريّا وأنجبا النبيّ يوحنّا المعمدان.

أليصابات إذًا هي ابنة خالة العذراء مريم، ويوحنّا المعمدان هو ابن بنت خالتها.

---

(٩٦) **الأناجيل المنحولة**، الكنيسة في الشرق ٨، دير سيّدة النصر، نسبيه-غوسطا، لبنان، ١٩٩٩، صفحة ٣١-٣٢. ترجمة اسكندر شديد، تقديم ومراجعة الأبوَين جوزف قزّي والياس خليفة.

(٩٧) متّى ١: ١٥.

(٩٨) مرقس ١٥: ٤٠.

٣- حنّة ويواكيم والدا العذراء

تزوّجت من رجل غريب عن بيت لحم هو يواكيم الذي من الجليل، وأنجبت منه العذراء مريم.

"**كان في أيام هيرودس ملك اليهوديّة كاهن اسمه زكريّا من فرقة أبيّا، وامرأته من بنات هارون اسمها أليصابات**"(٩٩).

تنحدر مريم العذراء إذًا من حيث نسب أمّها إلى أسرة كهنوتيّة من سبط اللاويّين الكهنوتيّ يرجع بأصوله إلى هارون رفيق النبيّ موسى. ومن ميزة سبط اللاويّين الكهنوتيّ أنّ لذكوره وحدهم دون غيرهم، الحقّ بالزواج من إناث مختلف الأسباط.

أمّا يواكيم فكان رجلاً راعيًا وغنيًّا. واشتهر بالبساطة والطيب ودماثة الأخلاق.

عندما تزوّج يواكيم بحنّة كان في العشرينيّات من العمر (تراوح عمره حين زواجه بين ٢٠ و ٢٥)، وعلى ما يبدو أنّه تقدّم في السنّ كثيرًا قبل أن يُرزق بابنته مريم. حصل الأمر نفسه مع عديله زكريّا الذي لم يُرزق بابن إلاّ بعد تقدّمه بالسنّ.

متى وُلدت العذراء مريم؟

لمعرفة تاريخ ميلاد العذراء مريم يجب علينا الانطلاق من تاريخ ميلاد كلّ من المعمدان ويسوع.

إذا حدّدنا أنّ ميلادهما قد حصلا بين السنوات ٨ إلى ٤ قبل الميلاد،

وإذا جزمنا، إلى حدّ ما، بأنّ مريم العذراء قد تزوّجت في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها، تكون ولادتها قد تمّت بين السنوات ٢٤ و٢٠ قبل الميلاد.

أمّا فيما يختصّ بالفارق في السنّ بين مريم وابنة خالتها أليصابات، فلا يمكن تحديده. ولكن يبدو أنّ الفارق بينهما كبير.

وإنّ موضوع زواجها من يوسف، وبالطريقة التي تمّت، يؤكّد فرضيّة وفاة والديها قبل بلوغها سنّ النضج.

٤- زكرّيا زوج أليصابات ووالد المعمدان

يجب علينا، قبل كلّ شيء، أنّ نميّز بين النبيّ زكريّا بن بركيا الذي قتله اليهود كما أشار يسوع "**لكي يأتي عليكم كلّ دم زكيّ سُفك على الأرض، من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريّا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح**"(١٠٠). عاش هذا الرجل في القرن السادس قبل الميلاد.

---

(٩٩) لوقا ١: ٥.

(١٠٠) متّى ٢٣: ٣٥.

أمّا زكريّا والد يوحنّا المعمدان: "**كان في أيام هيرودس ملك اليهوديّة كاهن اسمه زكريّا من فرقة أبيّا، وامرأته من بنات هارون اسمها أليصابات**"(١٠١).

بالنسبة إلى فرقة أبيّا الكهنوتيّة فهي بدورها ترجع بأصولها إلى هارون.

وبما أنّ زكريّا كان من بيت لحم، وكان من سلالة هارون الكهنوتيّة، فربّما وُجدتْ قرابة بينه وبين زوجته أليصابات.

٥- مريم ومريم ومريم

لطالما شاع اسم مريم، منذ قديم الزمان، في الأوساط اليهوديّة. ويرد الاسم إحدى وخمسين مرّة في العهد الجديد، هي في أغلبها عن العذراء أمّ يسوع. أمّا باقي المريمات فهنّ:

مريم أمّ يعقوب وأمّ يوسى.

مريم أمّ يعقوب ويوسى.

مريم زوجة كلاوبّا.

مريم المجدليّة.

مريم التي من بيت عنيا شقيقة لعازر ومرتا.

مريم أمّ يوحنّا مرقس.

مريم التي يُسلّم عليها الرسول بولس في رسالته إلى أهل روما (١٦: ٦).

لن أتكلّم عن الآخيرتَين. ولكن يجب أن نعلم بأنّ المرأة اليهوديّة من بعد زواجها تصير معروفة باسم زوجها لا باسم أسرة أبيها.

أ- مريم الأولى

عند الصليب "**مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب الصغير وأمّ يوسى وسالومة**"(١٠٢).

عند الصليب "**مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب ويوسى وأمّ ابني زبدى**"(١٠٣).

الذهاب إلى القبر "**مريم المجدليّة ومريم الأخرى**"(١٠٤).

باستثناء مريم المجدليّة نحن أمام أربعة نساء باسم: ١- "مريم أمّ يعقوب الصغير"، ٢- "مريم أمّ يوسى"، ٣- "مريم أمّ يعقوب ويوسى"، ٤- "مريم الأخرى". وإذا عدنا إلى ما سبق وذكرناه عن سالومة نكون أمام خمسة نساء باسم مريم، إذ سالومة هي مريم سالومة. فمَن هنّ؟

(١٠١) لوقا ١: ٥.

(١٠٢) مرقس ١٥: ٤٠.

(١٠٣) متّى ٢٧: ٥٨.

(١٠٤) متّى ٢٨: ١.

مريم الأولى هي مريم أمّ يعقوب ومتّى العشّار الذي هو متّى الإنجيلي

يعقوب الصغير هو يعقوب بن حلفى وأمّه مريم. فهل لديه أخ يُدعى يوسى؟ كلاّ، ولكنّه شقيق متّى العشّار الذي هو متّى الإنجيليّ. ومتّى هذا كان على خلاف حادّ مع أخيه يعقوب بسبب عمله في جبي الضرائب، ولم يتصالحا إلاّ بعد أن انضمّ متّى إلى عِداد الرسل: "**ثمّ اجتاز فرأى لاويّ بن حلفى جالسًا عند مائدة الجباية، فقال له اتبعني. فقام وتبعه**"(١٠٥).

هنا تسقط النظريّة التي تعتبر أنّ يعقوب بن حلفى وسمعان الغيّور ويهوذا غير الإسخريوطي إخوة، وبالتالي إخوة يسوع، وأولاد يوسف البتول خطيب والدة الإله من زواج أوّل.

ب- مريم الثانية هي نفسها مريم الأولى

مريم الأولى، إذًا، هي مريم زوجة حلفى أمّ يعقوب ومتّى.

"**وكانت واقفة عند صليب يسوع أمّه وأخت أمّه مريم التي لكلاوبّا ومريم المجدليّة**"(١٠٦).

نحن أمام مشكلتَين: الأولى، مريم هي زوجة كلاوبّا. والثانية، مريم زوجة كلاوبّا هي أخت العذراء مريم.

حلّ المشكلة الأولى: لقد سقطت معظم الترجمات، بما فيها العربيّة في الخطأ الذي وقعت فيه الترجمة اليونانيّة لاسم "حلفى"، إذ لا وجود لحرف "الحاء" العبريّة في اللغة اليونانيّة، ويُستعاض عنها عادة بحرف "A" أو أحيانًا بحرف "K". والسكون لا وجود له في اليونانيّة "حَلْفى"، وعادة ما يُستعاض عنه بالحرف الصوتيّ الذي يسبقه "al"، أو الحرف الصوتيّ الذي يتبعه "lo". وحرف الفاء قد يُنقل بالفاء "Ph" وأحيانًا بالباء "P".

“Εἱστήκεισαν δὲ παρὰ τῷ σταυρῷ τοῦ Ἰησοῦ ἡ μήτηρ αὐτοῦ καὶ ἡ ἀδελφὴ τῆς μητρὸς αὐτοῦ, Μαρία ἡ τοῦ **Κλωπᾶ** καὶ Μαρία ἡ Μαγδαληνή”.

(يوحنّا ١٩: ٢٥).

“Φίλιππος καὶ Βαρθολομαῖος, Θωμᾶς καὶ Μαθθαῖος ὁ τελώνης, Ἰάκωβος ὁ τοῦ **Ἀλφαίου** καὶ Θαδδαῖος”.

(متّى ١٠: ٣).

وتكون النتيجة أنّ مريم أمّ يعقوب بن حلفى هي نفسها مريم أمّ يعقوب بن كلاوبّا. وكلاوبّا ليس سوى يونَنَة للاسم العبريّ حلفى.

---

(١٠٥) مرقس ٢: ١٣.

(١٠٦) يوحنّا ١٩: ٢٥.

ولتقريب الفكرة بشكل أفضل، استعمل اسم عائلتي "جبّور". فإذا أردنا نقل الاسم إلى اليونانيّة، نقع في مشاكل، قد تصل، مع مرور الزمن إلى تغيير كامل بالاسم. لا وجود لحرف الجيم في اللغة اليونانيّة، وعادة من يُستعاض عنه بالحرف "z". وحرف الباء لا وجود له في اللغة اليونانيّة ويُستعاض عنها بالحرف "v" "β" ولفظه ف، وللحصول على لفظ الباء في اللغة اليونانيّة، يلجأ اليونانيّون إلى دمج حرفَتي الميم والباء "mp" "μπ" على أن تُلفظ الميم.

والنتيجة قد تكون على الشكل التالي: "جبّور" قد تُصبح "zavvour" "زافّور". وقد تُصبح "zambur" "زامبور". وهناك احتمالات أخرى. ومع مرور الوقت سنكون أبعد ما يمكن عن اسم "جبّور".

حلّ المشكلة الثانية: "**أمّه وأخت أمّه مريم التي لكلاوبّا** (لحلفى)" (يوحنّا ١٩: ٢٥).

يعرف الجميع أنّ يواكيم وحنّة قد ذاقا الأمرَّين قبل أن يُرزقا بوحيدتَهما العذراء مريم. وبالتالي هناك استحالة لأنّ تُنجب العقار المتقدّمة في السنّ "حنّة" ابنة ثانية، إلاّ إذا أنجبت توأمًا!

ولنفترض أنّها أنجبت توأمًا، فهل يمكن أن تُطلق على الفتاتَين اسمًا واحدًا هو "مريم"!

ممّا لا شكّ فيها أنّ الأمر مستحيل في الحالتَين. فيكف يمكن أن نحلّ اللغز؟

كان حلفى شقيق يوسف، وقد تكوّنت أسرته من ثلاثة أشخاص: زوجته مريم، وابناه يعقوب ومتّى أو لاوي. ولقد ساد استعمال لقب أخت لزوجة الأخ (السلفة).

هذا وقد حاول كثيرون، على مرّ العصور، وضع سلالة ليسوع وإخوته مستعينين بالأناجيل المنحولة، ولا تزال نظريّاتهم موضع جدل واسع حتّى فيما بينهم.

ج- مريم الثالثة هي نفسها مريم الأولى

للجواب على هذا التساؤل، لا بدّ لنا من مقارنة بين نصّي كلّ من مرقس ومتّى.

عند الصليب "**مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب الصغير وأمّ يوسى وسالومة**"(١٠٧).

عند الصليب "**مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب ويوسى وأمّ ابني زبدى**"(١٠٨).

نحن أمام إشكاليّة معقدّة:

ننطلق من النصّ المرقسي.

١- إذا اعتبرنا أنّ واو العطف تخدم ما بعدها وغايتها تأكيديّة، تكون النتيجة: مريم أمّ يعقوب ومتّى، لديها ابن ثالث يُدعى يوسى، وابنة تُدعى سالومة.

---

(١٠٧) مرقس ١٥: ٤٠.

(١٠٨) متّى ٢٧: ٥٨.

يأتي الاستنتاج سلبيًّا، لأنّ سالومة هذه هي ابنة خالة العذراء مريم. وبما أنّ مريم أمّ يعقوب لم تُنجب سوى ابنَين، فيوسى لا يمكن أن يكون ابنها.

٢- وإذا اعتبرنا أنّ واو العطف ترجع إلى ما قبلها، تكون النتيجة: مريم أمّ يعقوب ومتّى. وامرأة أخرى هي أمّ يوسى وسالومة.

يأتي الاستنتاج سلبيًّا أيضًا، إذ لم يكن لسالومة من إخوة.

٣- وإذا اعتبرنا أنّ واو العطف الأولى ترجع إلى ما بعدها وغايتها تأكيديّة، وواو العطف الثانية ترجع إلى ما قبلها، تكون النتيجة: مريم أمّ يعقوب ومتّى، لديها ابن ثالث يُدعى يوسى. وقد كانت مريم أمّ هؤلاء الثلاثة حاضرة عند الصليب مع سالومة.

يأتي الاستنتاج سلبيًّا أيضًا، إذ لا وجود لابن ثالث لمريم أمّ يعقوب.

٤- وإذا اعتبرنا أنّ واو العطف الأولى ترجع إلى ما قبلها، واو العطف الثانية ترجع أيضًا إلى ما قبلها، تكون النتيجة: مريم أمّ يعقوب ومتّى. وقد كانت حاضرة معها مريم أمّ يوسى، ومريم أمّ سالومة.

أمّا في النصّ المتّاوي، فالمشكلة أقلّ تعقيدًا "مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب ويوسى وأمّ ابني زبدى".

١- إذا اعتبرنا أنّ واو العطف تخدم ما بعدها وغايتها تأكيديّة، تكون النتيجة: مريم أمّ يعقوب ومتّى، لديها ابن ثالث يُدعى يوسى.

يأتي الاستنتاج سلبيًّا، لأنّ مريم أمّ يعقوب لم تُنجب سوى ابنَين، فيوسى لا يمكن أن يكون ابنها.

٢- وإذا اعتبرنا أنّ واو العطف ترجع إلى ما قبلها، تكون النتيجة: مريم أمّ يعقوب ومتّى. وشخص يُدعى يوسى.

لحلّ اللغز يجب أن نعرف مَن هو يوسى ومَن هي أمّه!

٦- يوسى وسمعان الملقّب بالغيور ويهوذا غير الإسخريوطي ووالدهم ووالدتهم

يوسى هو يوسف يوسى. ولكنّ المعلومات التاريخيّة عنه لا تزال مبهمة.

قيل إنّهم أولاد يوسف البتول من زواج سابق.

وقيل إنّهم أولاد يوسف بعد زواجه من مريم أرملة أخيه حلفى التي مات زوجها فاتّخذها والد يسوع زوجة له ثمّ بعد موتها تزوّج من العذراء.

وقيل إنّ هؤلاء أولاد حلفى من زواج سابق.

وقيل إنّهم أولاد مريم زوجة حلفى من زواج سابق.

أ- تفنيد الزعم الأوّل القائل بزواج سابق ليوسف البتول

إنّه ليستحيل دمج الأمور والوقوع في التباسات عديدة، لأنّ ذلك سيؤدّي إلى مشاكل تاريخيّة تخلو من المنطق.

فإذا افترضنا أنّ يوسى وسمعان ويهوذا هم أولاد يوسف من زواج سابق، نقع في إشكاليّة البحث عن الزوجة الأولى المجهولة تمامًا. ونقع في المغالطة التي لا يزال صداها يتردّد حتّى اليوم من أنّ يوسف كان عجوزًا عندما تزوّج بالعذراء مريم، وبالتالي ننفي تقليدًا إيمانيًّا تناقلته الكنيسة في الشرق والغرب عن بتوليّة يوسف.

ب- تفنيد الزعم الثاني القائل بزواج سابق ليوسف البتول من مريم زوجة أخيه حلفى المترمّلة

كيف يمكن القول بأنّ حلفى شقيق يوسف كان متوفّيًا وأرملته متزوّجة من أخيه المتوزّج من العذراء مريم، ونحن نراها عند موت يسوع لا تزال على ذمّة زوجها؟

"**وكانت واقفة عند صليب يسوع أمّه وأخت أمّه مريم التي لكلاوبّا ومريم المجدليّة**"(١٠٩).

طرح كهذا يجعل من يوسف متزوّجًا من امرأتَين في آن واحد، وهذه استحالة لا تستوجب التفنيد والبحث.

ج- تفنيد الزعم الثالث القائل بأنّهم أولاد حلفى من زواج سابق

طالما أنّ حلفى قد أنجب يعقوب ومتّى من زوجته الثانية مريم، وأنّه كان لا يزال حيًّا عند موت يسوع، فهذا يجعل عدد أولاده خمسة بدلاً من اثنَين وإذا أضفنا إليهما يوسى، يصبح عدد أولاده ستّة، وبالتالي هل يمكن أن يُشكّل أبناء عمّ يسوع نصف تلاميذه؟ وإذا أضفنا إليهم يعقوب ويوحنّا ابنَي عمّته زوجة زبدى، نضع رسالة يسوع موضع الشكّ.

د- تفنيد الزعم الرابع القائل بأنّهم أولاد مريم زوجة حلفى من زواج سابق لها

ينطبق هنا على ما قلته في تفنيد الزعم الثالث.

نصّ الإنجيليّ متّى "**ومريم أمّ يعقوب ويوسى**". إذًا، تبدو المشكلة بسيطة ولا تحتاج إلى معاناة تحليليّة لو أنّ المترجم وضع فاصلة داخل النصّ "**ومريم أمّ يعقوب، ويوسى**"، وبالتالي نفهم أنّنا أمام شخصَين قد كانا عند الصليب السيّدة مريم أمّ يعقوب، والسيّد يوسى.

نحن إذًا أمام أسرة متشابكة من حيث القُربة والنسب.

لدينا عند الصليب إذًا: ١- مريم المجدليّة. ٢- مريم أمّ يعقوب ومتّى العشّار. ٣- مريم أمّ يعقوب. ٤- يوسف يوسى. ٥- أمّ ابني زبدى.

هؤلاء، على الأرجح، كانوا عند صليب يسوع.

---

(١٠٩) يوحنّا ١٩: ٢٥.

رابعًا: رئيس الكهنة نيقوديمس

"وكان رجل من الفريسيّين اسمه نيقودِمس رئيس لليهود، فجاء إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلّم، نحن نعلم أنّك أتيت من الله معلّما..."(١١٠).

"فقال لهم نيقودِمس أحدهم الذي كان قد جاء إلى يسوع ليلاً"(١١١).

"وجاء أيضًا نيقودِمس الذي كان قد جاء إلى يسوع ليلاً ومعه حنوط من مُرّ وصبرٍ نحو مئة رطل"(١١٢).

كان الرجل عضوًا في المجمع الكهنوتيّ، غير أنّ المعلومات عنه شبه نادرة. يُحكى أنّ رؤساء الكهنة طردوه من وظيفته وأبعدوه عن أورشليم بسبب إيمانه بيسوع.

نجده يلعب دورًا رئيسًا في الدفاع عن يسوع خلال محاكمته(١١٣).

خامسًا: يوسف الذي من الرامة

"جاء يوسف الذي من الرامة وهو مشير شريف، وكان هو أيضًا ينتظر ملكوت الله، فاجترأ ودخل على بيلاطس وسأله جسد يسوع. فاستغرب بيلاطس أنّه قد مات هكذا سريعًا، واستدعى قائد المئة وسأله هل مات؟ ولمّا عرف ذلك من القائد، وهب الجسد ليوسف"(١١٤).

"ولمّا كان المساء، جاء رجل غنيّ من الرامة اسمه يوسف، وكان تلميذًا ليسوع. هذا دنا إلى بيلاطس وسأله جسد يسوع. فأمر بيلاطس أن يُسلّم الجسد. فأخذ يوسف الجسد ولفّه في كتّان نقيّ ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة، ثمّ دحرج حجرًا عظيمًا على باب القبر ومضى"(١١٥).

"وإذا برجل اسمه يوسف وهو مشير صالح صدّيق، ولم يكن موافقًا لرأيهم وعملهم، وكان من الرامة مدينة اليهود، وكان هو أيضًا ينتظر ملكوت الله. هذا دنا إلى بيلاطس وسأله جسد يسوع. وأنـزله ولفّه في كتّان، ووضعه في قبر منحوت لم يكن قد وُضع فيه أحد"(١١٦).

---

(١١٠) يوحنّا ٣: ١-٢.

(١١١) يوحنّا ٧: ٥٠.

(١١٢) يوحنّا ١٩: ٣٩.

(١١٣) راجع إنجيل نيقوديمس أو كتاب أعمال بيلاطس، في: الأناجيل المنحولة، الكنيسة في الشرق ٨، دير سيّدة النصر، نسبيه-غوسطا، لبنان، ١٩٩٩، صفحة ١٣٥-١٧٠. ترجمة اشكندر شديد، تقديم ومراجعة الأبوَين جوزف قزّي والياس خليفة.

(١١٤) مرقس ١٥: ٤٦.

(١١٥) متّى ٢٧: ٥٧-٦٠.

(١١٦) لوقا ٢٣: ٥٠-٥٣.

كان الرجل غنيًّا من مدينة الرامة في منطقة اليهوديّة. وعلى ما يبدو أنّه كان من جهابذة الكتاب المقدّس، وكان يتوقّع مجيء المسيح، ولذلك آمن بيسوع الملك المنتظر. غير أنّ المعلومات عنه شبه نادرة. أقام علاقة صداقة مع يسوع، وإذ اقتنع بالمعطيات الكتابيّة وانطباقها على شخص يسوع، رأى فيه تحقُّق النبوءات.

حكيت عنه قصص كثيرة. وسرعان من اعتبرته الكنيسة الشرقيّة والغربيّة قدّيسًا. ويحتفل الشرق بعيده في الحادي والثلاثين من تمّوز، أمّا الكنيسة اللاتينيّة فتُعيّد له في السابع عشر من آذار.

سادسًا: رئيس الكهنة حنّان

"**في السنة الخامسة عشرة من مُلك تيباريوس قيصر حين كان بيلاطس واليًا على اليهوديّة، وهيرودس رئيس رُبع على الجليل، وفيلبّس أخوه رئيس رُبع على إيطورية وبلاد تراكونيتس، وليسانيوس رئيس رُبع على أبيلينة، وحنّان وقيافا رئيسَي الكهنة**"(١١٧).

انتمى حنّان إلى الفريسيّين، وكان كاهنًا. وعندما تولّى كورينيوس إدارة البلاد، عيّنه رئيس كهنة (بين السنة السادسة والسابعة ميلاديّة). دامت رئاسته للكهنوت حتّى مجيء الوالي فاليريوس غراتوس فترة (سنة ١٥ ميلاديّة)، الذي أقاله وعيّنه مكانه كاهنًا آخر يُدعى إسماعيل.

عُرف حنّان بنفوذه الكبير بين اليهود، ولعب غناه دورًا مهمًّا في استمرار هذا النفوذ حتّى بعد إقالته من منصبه. واستطاع بنفوذه أن يُعيّن صهر قيافا رئيسًا للكهنة، وكذلك أوصل خمسة من أولاده لهذا المنصب الرفيع.

عمّر حنّان طويلاً ولكنّنا نجهل تاريخ وفاته الذي يُرجّح أنّ يكون بعد سنة خمسين ميلاديّة.

استغلّ حنّان نفوذه الكبير وشارك في إصدار حُكم الموت على يسوع. وإذا تأمّنا في نصّ الإنجيلي يوحنّا، نُكتشف فعلاً حجم تأثيره على الشارع اليهودي: "**ثمّ إنّ الفرقة والقائد وخُدّام اليهود أخذوا يسوع وأوثقوه، وجاءوا به أوّلاً إلى حنّان لأنّه كان حما قيافا الذي كان رئيس الكهنة في تلك السنة، وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود وقال: إنّه خير أن يموت رجل واحد عن الشعب**"(١١٨).

لم يكن اللقاء بحنّان، الذي ظهر وكأنّه رئيس كهنة، في الهيكل، بل في بيته. وعنده أُهين يسوع ولُطم على خدّه. وبعد أن استجوبه "**فأرسله حنّان موثقًا إلى قيافا رئيس الكهنة**"(١١٩).

(١١٧) لوقا ٣: ١.
(١١٨) يوحنّا ١٨: ١٢-١٤.
(١١٩) يوحنّا ١٨: ٢٤.

سابعًا: رئيس الكهنة قيافا

"**حينئذ اجتمع الكهنة وشيوخ الشعب في دار رئيس الكهنة الذي يُقال له قيافا**"(١٢٠).

قيافا أو قيفا اسم عبريّ يعني "الصخرة". وقد رأى بعض المؤرّخين أنّ ما ذكره والإنجيليّ متّى بقوله "**يُقال له قيافا**" إنّما هو دليل على مكانته العقائديّة كصخرة للإيمان.

إنّه يوسف قيافا الذي تولّى رئاسة الكهنوت بين السنوات ١٨-٣٦ ميلاديّة. وكان من الفريسيّين.

ارتبط بعلاقة وطيدة مع حنّان الذي زوّجه بأخته، واستطاع بدعم حنّان أن يكوّن نفوذًا واسعًا في أوساط اليهود. وتعاظم نفوذه حتّى أصبح يُشكّل خطرًا على الدولة الرومانيّة التي أقالته سنة ٣٦ ميلاديّة.

اتّسمت شخصيّته بالدهاء والسياسة، فكان مع الرومانيّين مواليًا لهم، ومع اليهود محرّضًا. لعب على مختلف الأوتار والعصبيّات، وأظهر ولاء لروما حتّى إنّه لم يُشارك في الاحتجاجات التي حصلت عندما تخطّى بيلاطس حُرمات اليهود، فرأى الرومانيّون بتصرّفه هذا اعتدالاً وحكمة، وهذا ما يُفسّر إبقاءه في وظيفته مدّة ثمانية عشرة سنة. ولكنّ بيلاطس كشفه على حقيقته عندما أظهر علنًا انحيازه لليهود وحقده على يسوع.

عندما زاد استياء الكهنة اليهود من يسوع، اتّخذ قيافا الموقف الحازم "**جمع رؤساء الكهنة والفريسيّون المحفل، قالوا: ماذا نصنع فإنّ هذا الرجل يعمل آيات كثيرة، وإن تركناه هكذا، آمن به الجميع، فيأتي الرومانيّون ويستحوذن على أرضنا وأمّتنا. فقال لهم واحد منهم اسمه قيافا، وكان رئيس الكهنة في تلك السنة، إنّكم لا تعرفون شيئًا، ولا تعقولن أنّ خير أن يموت رجل واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمّة كلّها**"(١٢١).

أكمل يوسف قيافا مهامه في رئاسة الكهنوت، وعلى عهده تحوّل الهيكل إلى مكان للتجارة والأعمال، الأمر الذي أثار حفيظة يسوع.

ونراه من بعد القيامة يُلاحق تلاميذ يسوع (أعمال الرسل الفصل الرابع).

أسهمت جميع أعماله وتصرّفاته في زيادة نقمة الرومانيّين عليه، وفُضح كرجل مثير للشغب. وبعد إقالته من مهامه، أكمل لعب أدواره في المجتمع اليهودي. ولا يُعرف تاريخ وفاته ومكانها.

---

(١٢٠) متّى ٢٦: ٣.

(١٢١) يوحنّا ١١: ٤٧-٥٠.

ثامنًا: سمعان الشيخ الصدّيق

"وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهو رجل صدّيق تقيّ كان ينتظر تعزية إسرائيل والروح القدس كان عليه"(١٢٢).

كاهن متزوّج ورجل تقيّ، أنجب ابنَين، قيل إنّ اسم أحدهما كارينوس(١٢٣) واسم الثاني لينثيوس(١٢٤)، آمنا كلاهما بيسوع وقد حدّثهما أباهما عنه وعن موته على الصليب وقيامته. ونُسبت إليهما رواية نـزول يسوع إلى الجحيم التي لمّح إليها الإنجيليّ متّى **"والقبور تفتّحت وقام كثير من أجساد القدّيسين الراقدين"** (٢٧: ٥٢).

قيل عن سمعان الشيخ إنّه كان واسع المعرفة ومتبحّرًا بمختلف العلوم، وإنّه كان يعرف نبوءات زرادشت وقد قارن بين مضمونها ومضمون نبوءات العهد القديم، واكتشف التوافق بينهما، وصار يراقب حركة النجوم في السماء. وعلى ما يبدو أنّه كان على خلاف مع مفسّري نبوءات العهد القديم بخصوص تاريخ مجيء المسيح وهويّته. وهو مع قليلين غيره قد أدرك أنّ مُلك المسيح غير زمنيّ.

ولم يُعرف عنه شيء آخر.

تاسعًا: حنّة النبيّة

"وكانت أيضًا حنّة النبيّة ابنة فنوئيل من سبط أشير. هذه كانت قد تقدّمت في الأيام كثيرًا، وكانت قد عاشت مع رجلها سبع سنين بعد بكوريّتها، ولها أرملة نحو أرع وثمانين سنة لا تُفارق الهكيل متعبّدة بالأصوام والصلوات ليلاً ونهارًا. ففي تلك الساعة حضرت تعترف للربّ، وتُحدّث عنه كلّ مَن كان ينتظر فداء إسرائيل"(١٢٥).

أشير هو الابن الثاني ليعقوب ابن اسحق ابن إبراهيم خليل. ذهب إلى مصر ومعه أولاده. بدأت أسرته في النموّ بأرض مصر. ومن بعد مصر ارتحل القوم الذين تعاظم عددهم نحو البحر الأبيض المتوسّط، غير أنّ مكانتهم بين اليهود بقيت مغمورة. لم يحظَ أبناء هذا السبط بأدوار كهنوتيّة تُذكر. واشتهرت سلسلة أشير بالاعتدال والانفتاح على مختلف الشعوب، واختلاط زواجاتهم.

أمّا أماكن انتشارهم على عهد يسوع فكان في منطقة السامرة والجليل.

---

(١٢٢) لوقا ٢: ٢٥.

(١٢٣) Charinus.

(١٢٤) Lenthius.

(١٢٥) لوقا ٢: ٣٦-٣٨.

بالنسبة إلى حنّة النبيّة، فقد كانت إحدى سلسليات هذا السبط، واشتهرتْ بالحكمة وبمعرفة علامات الأزمنة. لم تكن نبيّة بالمعنى الحرفيّ للكلمة، ويمكن اعتبارها بلغة أيامنا الحاليّة: حكيمة وتقيّة، تُصّلي للناس لتطرد عنهم الشرّ والمرض، وتعرف أن تنصحهم. وكان الناس يأتون ويستشيرونها في مختلف أمور حياتهم ومشاكلهم وأمراضهم.

ولم يُعرف عنها شيء آخر.

عاشرًا: الرسل السبعون

"**وبعد ذلك عيّن الربّ اثنين وسبعين وأرسلهم، اثنين اثنين أمام وجهه إلى كلّ مدينة وموضع أزمع أن يأتي إليه**"(١٢٦).

للرقم السابع مكانة روحيّة ودينيّة كبيرة في العالم اليهوديّ. وكذلك هي الحال بالنسبة إلى مضاعفاته. وقد احتّل هذا الرقم مكانة واسعة في عالم الرمزيّة اليهوديّة، وبُنيتْ على أسس رمزيّته هيكليّات المؤسّسات اليهوديّة، حتّى إنّ عدد أعضاء السنهدريم سبعين عضوًا (حتّى على أيام يسوع).

تجدر الإشارة إلى أنّ النبيّ موسى قد اختار سبعين شيخًا ليساعدوه في إدارة الشعب "**فقال الربّ لموسى: اجمع لي سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنّهم شيوخ الشعب وعُرفاءهم...**"(١٢٧). وفي سفر العدد (الفصل ٢٩) نعرف أنّ سبعين هو عدد الذبائح التي أمر الله أن يُقدّمها اليهود على عيد المظال.

وعلى ما يبدو أنّ يسوع سار على النهج عينه، ليُفهم اليهود أنّه هو موسى الجديد.

وقد ترك لنا التقليد المسيحي أسماء معظمهم، نضعها كما هي: كلاوبّا وأنرونيكوس وسلوانس وأغابوس وحنانيّا وفيلبّس وبروخورس ونيكانور ولينوس وإستاخيس واستفانوس وتيمون وهرميس وفليغون ومرقس ولوقا وسوسيبتروس وياسون وغائيوس وتيخيكوس وفيلمون ونركِسُّس وثروفيموس وقيصر وزيناس وأرسترخوس ومرقس وسيلا وغائيوس وهرميس وأبليس وكيفا وإكليمنضوس ويستس وكوارثوس وأرستوس ولوقا وأونيسيفورس وكربوس وإيفوذيوس ومتيّا ويعقوب وأُربانوس وأرسطوبوس وأرسترخوس وبوذي وهيروذيون وأبلّيس وأمبلياس وباتروفاس وتيطس وتيرنيوس وتدّاوس وإيبنيتوس وأخائيكوس وأكيلا ولوكيوس وبرنابا وفرتوناتوس وكريسكيس وأبّولس(١٢٨).

---

(١٢٦) لوقا ١٠: ١.

(١٢٧) عدد ١١: ١٦.

(١٢٨) محبوب (أغابيوس) قسطنطين ابن، الرومي المنبجي، كتاب العنوان، باريس، ١٩٠٩، صفحة ٤٨٠. تحقيق ألكسندر فاسيليف.

ونرى بوضوح أنّ كلّ واحد من هؤلاء الرسل السبعين من أصل معيّن، وأنّ عددًا كبيرًا منهم لم يكن يهوديًّا. ولقد توزّعوا في أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة وخارجها لإعلان مجيء والتبشير به. وهؤلاء لم يبدأوا بالتبشير بعد القيامة، ولكن خلال فترة حياة يسوع وبالتزامن مع تبشيره.
خلاصة القول، ما هو تفسير انخراط جميع هؤلاء في عدد رسل يسوع؟ أليس لأنّهم فعلاً قد وجدوا عنده كلّ الحقيقة!

حادي عشر: يائيروس (يائيرس، يايرس) رئيس المجمع(١٢٩)

"فأتى إليه واحد من رؤساء المجمع اسمه يائير، ولمّا رآه، خرّ على قدميه، وسأله كثيرًا قائلاً إنّ ابنتي مشرفة على الموت، فأتِ وضع يدك عليها فتنجو وتحيا"(١٣٠).

ترد قصّة إقامة يسوع لابنته من بعد موتها، عند كلّ من الإنجيليّين الثلاثة مرقس ومتّى ولوقا. وقد صنع يسوع المعجزة في كفرناحوم حيث كان يائيروس يسكن بالقرب منها. وهو رجل يهوديّ شغل منصب رئيس مجمع صغير بالقرب من كفرناحوم. ولم يُعرف عنه شيء آخر.

ثاني عشر: لعازر أو أليعازار ومريم ومرتا

"وكان رجل مريض وهو لعازر من بيت عنيا، من قرية مريم وأُختها مرتا، ومريم هي التي دهنت الربّ بالطيب ومسحت قدميه بشعرها..."(١٣١).

لعازر اسم يعني "الله أعان" أو "عون الله"، وهو اسم شائع عندما اليهود في تلك الحقبة.

بيت عنيا بلدة تبعد عن أورشليم نحو أربعة كيلومترات باتجاه الجنوب الغربي(١٣٢)، ويُنطلق إليها مرورًا بطريق الجسمانيّة.

بغضّ النظر عن الروايات التي نجدها في السنكسارات أو بعض كتب تاريخ الكنيسة أو بعض التقاليد المحليّة، ليس لدى المؤرّخين معلومات عمّن يكون هذا الرجل، ولا عن مريم ومرتا أختها.

هل كان لعازر غنيًّا كما يدّعي البعض؟ هل كان فعلاً صديقًا ليسوع؟ وقصّة دهن مريم ليسوع بالطيب مع جميع التأويلات أو التفاسير الروحيّة التي أُعطيت لها، تبقى رواية لا أجوبة تاريخيّة واضحة عنها.

---

(١٢٩) Jaïre, Jaïrus.

(١٣٠) مرقس ٥: ٢١-٢٣.

(١٣١) يوحنّا ١١: ١-٤٥.

(١٣٢) غير دقيقة هي الحواشي الموضوعة في بعض الطابعات العربيّة للإنجيل عندما تجعلها بعيدة عن أورشليم نحو عشرين كيلومترًا وباتجاه الشمال.

ثالث عشر: التلاميذ الاثنا عشر

"وهذه أسماء الاثني عشر رسولاً: الأوّل سمعان المدعوّ بطرس ثمّ أندراوس أخوه، ويعقوب بن زبدى ويوحنّا أخوه، وفيلبّس وبرتلماوس وتوما ومتّى العشّار ويعقوب بن حلفى، وسمعان القانوني ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه"(١٣٣).

سبق أن تكلّمنا عن سمعان الغيور أو القانوني وعن يهوذا غير الإسخريوطي وهو تدّاوس أو لبّاوس، فراجع ما قلناه في معرض الحديث عن أقرباء العذراء. أمّا باقي الرسل فقد كُتب عنهم الكثير في تاريخ الكنيسة والسنكسارات والمداخل إلى الكتاب المقدّس. لذلك لن أتكلّم عنها، ولكنّ توضيحات حول بعضهم سترد في الفصول المقبلة.

---

(١٣٣) متّى ١٠: ٢-٤.

الفصل السادس
ولادة يسوع وسفره إلى مصر

أوّلاً: زواج غريب

"**أمّا مولد المسيح فكان هكذا، لمّا خُطبت أمّه ليوسف، وُجدت من قبل أن يسكنا معًا حُبلى من الروح القدس. وإذ كان يوسف رجلها صدّيقًا ولم يُرد أن يشهرها همّ بتخليتها سرًّا. وفيما هو مفتكر في ذلك إذا بملاك الربّ ترآءى له في الحلم...**"(١٣٤).

زواج غريب بين يوسف المعروف عند المسيحيّين بالنجّار ومريم.

مَن هو هذا الرجل؟ هل كان نجّارًا؟ هل تزوّج فعلاً من مريم وقد تخطّى السبعين من عمره؟ وهل مات فعلاً وقد تخطّى المائة، كما تزعم بعض الكتب التي تروي سيرته؟

في الواقع يصعب الجواب على جميع هذه الأسئلة. ولكنّنا نجد في النصوص الإنجيليّة إشارات معيّنة توضح الصورة الملتبسة عن هذا الرجل.

نقرأ في متّى: "**وعندما أتمّ يسوع هذه الأمثال، ذهب من هناك وجاء إلى وطنه، وأخذ يُعلّم الناس في مجمعهم، حتّى دهشوا وقالوا: من أين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أما هو ابن النجّار؟...**"(١٣٥).

نستدلّ من النصّ أنّ يوسف هذا كان معروفًا كصاحب مهنة، وبالتالي لا بدّ أنّه كان بارعًا في مهنته لدرجة أكسبته شهرة واسعة.

في الواقع، ظهرت مؤلّفات كثيرة تتكلّم عن يوسف الصدّيق والبتول خطيب مريم العذراء، منها مَن نحا نحو كتابات أساطير بناها انطلاقًا من نصوص الأناجيل المنحولة، ومنها مَن سار باتجاه روحيّ صِرف، ومنها مَن أراد أن يُقدّم حججًا تناقض عقيدة المسيحيّين وإيمانهم بالولادة المعجزة من جهة، وببتوليّة كلّ من مريم ويوسف من جهة أخرى.

وأصدرت الباحثة الكاثوليكيّة بوليت لوبلان كتابًا في أربعة أجزاء حمل عنوان "**القدّيس يوسف، مَن أنت**"(١٣٦)، عرضت فيه اسم يوسف في العهد القديم والأدوار التي لعبها كلّ مَن حمل الاسم، ثمّ أجرت مقارنة بين يوسف ابن يعقوب ويوسف خطيب مريم. ثمّ انتقلت إلى الأناجيل الأربعة. وبعدها نقلت جميع ما قيل عن يوسف بدءً من آباء الكنيسة مرورًا بالأناجيل المنحولة، ثمّ المؤرّخين، فالأدباء فالرهبان والراهبات، فالقدّيسين، فتعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة عنه، وأنهت العمل

---

(١٣٤) متّى ١: ١٨ وتوابعها.

(١٣٥) متّى ١٣: ٥٣-٥٥.

(١٣٦) Leblanc Paulette, **Saint Joseph Qui est tu?**, 4 tomes, Première edition, Alex-Diffusion, France, 2016.

واضعة مختلف الصلوات والطلبات والتساعيّات التي خُصّصت لتكريمه عبر الأخيال. وأجمل ما في الكتاب نظريّتان قريبتان من الواقع.

النظريّة الأولى، ومفادها أنّ شهرة يوسف إنّما آتية نتيجة عمله في توسيع الهيكل على عهد هيردوس الكبير. إذ عندما أنهى هيرودس الكبير هذا توسيع الهيكل سنة ١٠ قبل الميلاد، كان قد سخّر لتحقيق غايته أفضل المهندسين والحرفيّين، وكان يوسف واحدًا منهم، وكان بتماس مباشر مع كبار المهندسين الـمُعيّنين من بلاط الملك. وعلى ما يبدو أنّ عمله في النجارة كان أقرب إلى ما نُسميّه اليوم في لغتنا الحاليّة "نجّار بيتون" و"نجّار عربي"، فقد أتقن صنع الأبواب والنوافذ والديكور، وأتقن كذلك صنع الدعائم التي تُستعمل للبناء.

أمّا النظريّة الثانية، وقد وجدتها مقنعة جدًّا وأقرب إلى الدور الروحي ليوسف، وتنطلق من الطرح الآتي:

يوسف كأيّ يهوديّ نال الختان بعد ثمانية أيام من مولده، وفي يوم ختانه أُعطي اسم يوسف، بحسب عادة اليهود آنذاك. ويبدو أنّه ورث مهنة النجارة عن أسرته، لأنّ اليهود، في تلك الحقبة، كانوا يمارسون مهنة ويُلقّنونها لأولادهم، بما فيهم الكهنة. وقد كان يوسف، كأيّ يهوديّ متديّن يمارس شعائره الطقسيّة، ويذهب للصلاة في الهيكل ويقرأ أسفار العهد القديم، وقد عُرف باعتداله وابتعاده عن الغيورين الذين يكنّون العداء للرومانيّين. وفي فترة لاحقة، أصبح يوسف الشاب رابيًّا (معلّمًا)، وانتمى إلى جماعة الأسّانيّين المتزهّدة وأمضى فترة في الصحراء، وحتّى يسوع عندما صام أربعين يومًا وأربعين ليلة فذاك كان يعني في مفهوم ذلك العصر أنّه أمضى هذه الفترة مع هذه الجماعة المتزهّدة. وعلى ما يظهر في الأناجيل أنّ هذه الجماعة لم تعترض يومًا على رسالة يسوع.

وقد أصبح يوسف معلّمًا، وكرّس نفسه لخدمة الله. وفي هذا الإطار تعرّف على الشابّة مريم، وبدأ يُعلّمها الشريعة ومخافة الله. وبما أنّه، على غرار يوسف الراميّ، كان ملمًّا بالكتاب المقدّس، عرف أنّ مجيء المسيح المنتظر قريب، وفهم أنّه قد يتمّ من مريم هذه. وهنا وجد نفسه أمام قرار يجب اتخاذه، أي حماية هذه الفتاة الشابّة. ولا مجال لحمايتها إلاّ وفق الشريعة. وهكذا عقد قرانه عليها بدون أن يتزوّجها.

"وُجدت قبل أن يسكنا معًا حُبلى من الروح القدس" .

(١٣٧) متّى ١: ١٨.

كان الزواج اليهوديّ يُعقد على مرحلتَين: في الأولى، يتمّ عقد قانونيًّا غير قابل للتراجع، يُقدّم خلال طالب الزواج هديّة قطعة من حليّ كعربون، ولكنّه لا يأخذ زوجته إلى بيته. وفي الثانية، تتمّ حفلة الزفاف والانتقال إلى البيت الزوجي. وقد أتمّ المعلّم الرابيّ يوسف النجّار العقد، ولم تكن في نيّته فكرة الزفاف قطعيًّا لأنّه كرّس نفسه لله. والدليل على ذلك غياب يوسف في الأناجيل الأربعة، وحتّى غيابه عن ساحة الولادة عينها: أتى المجوس "**فرأوا الطفل يسوع مع مريم أمّه**"(١٣٨).

لقد لعب يوسف دور المربّي ليسوع، والجندي المرافق لمريم وابنها حتّى موعد انطلاق تبشيره(١٣٩).

ثانيًا: يسوع الناصريّ؟

"**وأتى وسكن في مدينة تُدعى الناصرة ليتمّ المقول بالأنبياء إنّه يُدعى ناصريًّا**"(١٤٠).

وإذا كان يوسف من بيت لحم، وقد سكن الناصرة بعد عودته من مصر، فلماذا طغى اسم الناصرة على ابنه؟ ولماذا دُعي يسوع ناصريًّا؟

إنّها معضلة كبرى أدخلت العالم المسيحيّ في صراع كبير مع التسمية، خاصّة مع دخول الإسلام وتسميتها للمسيحيّين نصارى!

يرد ذكر الناصرة أو ناصريّ في العهد الجديد عشر مرّات فقط.

"**وما إن توفّي هيرودس حتّى تراءى ملاك الربّ في الحلم ليوسف... فلجأ إلى ناحية الجليل، وجاء مدينة يُقال لها الناصرة، فكسن فيها، ليتمّ ما قيل على لسان الأنبياء: إنّه يُدعى ناصريًّا**"(١٤١).

"**وبلغ يسوع خبر اعتقال يوحنّا، فلجأ إلى الجليل، ثمّ ترك الناصرة وجاء كفرناحوم**"(١٤٢).

"**ولمّا دخل أورشليم ضجّت المدينة كلّها وسألت: مَن هذا؟ فأجابت الجموع: هذا النبيّ يسوع من ناصرة الجليل**"(١٤٣).

"**وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل، واعتمد على يد يوحنّا في الأردن**"(١٤٤).

---

(١٣٨) متّى ٢: ١٠.

(١٣٩) Cfr. Leblanc Paulette, **Saint Joseph Qui est tu?..**, tomes 1, pp. 101-148, tome 2, pp. 10ss.

(١٤٠) متّى ٢: ٢٢.

(١٤١) متّى ٢: ١٩-٢٣.

(١٤٢) متّى ٣: ١٢.

(١٤٣) متّى ٢١: ١٠-١١.

(١٤٤) مرقس ١: ٩.

"وفي الشهر السادس، أرسل الله الملاك جبرائيل إلى مدينة في الجليل اسمها الناصرة"(١٤٥).

"وصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهوديّة إلى مدينة داود التي يُقال لها بيت لحم..."(١٤٦).

"ولمّا أتمّا جميع ما تفرضه شريعة الربّ، رجعا إلى الجليل إلى مدينتهما الناصرة..."(١٤٧).

"ثمّ نزل معهما، وعاد إلى الناصرة، وكان طائعًا لهما..."(١٤٨).

"وجدنا الذي ذكره موسى في الشريعة وذكره الأنبياء، وهو يسوع ابن يوسف من الناصرة. فقال له نثائيل: أمن الناصرة يمكن أن يخرج شيء صالح"(١٤٩).

"فشرع بطرس يقول... في شأن يسوع الناصريّ كيف أنّ الله مسحه بالروح القدس والقدرة..."(١٥٠).

نستغرب كيف أنّ لقبًا مثل هذا وسم يسوع المسيح منذ فجر المسيحيّة حتّى اليوم، لم يمرّ في كتب العهد الجديد سوى بضعة مرّات، وبشكل مبهم أيضًا.

يبدو غريبًا ألاّ تكون المدينة المزعومة معروفة، فيُطلق عليها اسم "مدينة يُقال لها الناصرة"، ثمّ تصبح مدينة يسوع.

إذا راجعنا كتاب يوسفيوس المؤرّخ الذي يسرد فيه أسماء المدن اليهوديّة الموجودة على عهده وتاريخ تشييدها، لا نرى أيّ ذكر للناصرة. وإذا عدنا إلى العهد القديم فلا نرى فيه أيّ ذكر لهذه المدينة المزعومة. فهل الأمر اختراع من مؤلّفي الأناجيل؟

في الواقع، يبدو أنّ مؤلّفي الأناجيل الأربعة وغيرهم من مؤلّفي الأناجيل التي اعتُبرت منحولة، لم يُقدّموا لنا سردًا تاريخيًّا محضًا لحياة يسوع المسيح، إنّما أضفوا على السرد لمسة روحيّة ولاهوتيّة وكتابيّة. فالناصريّ اسم لم يُطلق في العهد القديم إلاّ على شخص واحد هو شمشمون الجبّار، وهذا اللقب العبريّ هو "نذير" ونجد مرادفًا له في اللغة العربيّة.

نقرأ في سفر القضاة عن مولد شمشمون الجبّار **"وكان رجل من صرعة من عشيرة الدانيّين اسمه منوح، وامرأته عاقر لم تلد، فتراءى ملاك الربّ للمرأة وقال لها: ها أنتِ عاقر لم تلدي، ولكنّك تحبلين وتلدين ابنًا، والآن فاحذري ولا تشربي خمرًا ولا مسكرًا، ولا تأكلي شيئًا نجسًا، فها**

(١٤٥) لوقا ١: ٢٦.

(١٤٦) لوقا ٧: ٤.

(١٤٧) لوقا ٢: ٣٩.

(١٤٨) لوقا ٢: ٥١.

(١٤٩) يوحنّا ١: ٤٥-٤٦.

(١٥٠) أعمال الرسل ١٠: ٣٤-٣٨.

إنّك تحبلين وتلدين ابنًا، ولا يعلُ موس رأسه، لأنّ الصبيّ يكون نذريًا لله من البطن، وهو يبدأ يُخلّص إسرائيل من يد الفلسطينيّين"(١٥١).

في الواقع، جاءت ترجمة النصّ في السبعينيّة إلى اليونانيّة لتُعطي شمشمون اللقب "نذير" وهو في اليونانيّة "Ναζαρυνοσ" ومعناه "المنذور أو النذير". فهل رأى كاتبوا الأناجيل في يسوع نموذجًا لشمشون؟ الأمر جدّ محتمل(١٥٢).

وعلى الرغم من عدم وجود أيّ ذكر للمدينة قبل تحدّث الأناجيل عنها، إلاّ أنّ وجودها محتمل كبلدة صغيرة، ولكنّ أهميّتها لم تبدأ بالظهور إلاّ اعتبارًا من القرن الثاني الميلادي.

نعود الآن للحديث عن ولادة يسوع المسيح. في الوقع، يصعب جدًّا تحديد تاريخ ميلاد يسوع، والوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الغاية هي الانطلاق من تحديد تاريخ صلبه.

يتّفق مؤلّفو الأناجيل وأعمال الرسل مع المؤرّخ اليهودي يوسيفوس(١٥٣) على أنّ الحكم على يسوع قد تمّ بأمر بيلاطس الوالي(١٥٤) .

وبيلاطس كان واليًا ما بين السنوات ٢٦-٣٧ ميلاديّة.

لكي نصل إلى النتائج المرجوّة، يجب علينا أن نتعرّف على قصّة التقويم وإشكاليّاته.

ثالثًا: قصّة التقاويم

أشهر هذه التقاويم هو التقويم الشمسيّ.

وتُعرف التقاويم الشمسيّة بالسنة المداريّة، ومدّتها ٣٦٥ يومًا و٥ ساعات، و٤٨ دقيقة، و٤٦ ثانية (٣٦٥,٢٤٢٢ يومًا)، وهي الفترة المنقضية بين مرورَين متتاليَين للشمس من نقطة الاعتدال الربيعي، وهي تتحرّك ظاهريًّا حول الأرض. وفي خلال هذه الفترة تكون الأرض قد دارت حول نفسها ٣٦٥,٢٤٢٢ دورة، وتُعرف كلّ دورة باليوم الشمسي (أو اليوم الأرضي)، وهي تمثل تعاقب واحد لليل والنهار.

---

(١٥١) قضاة ١٣: ٢-٥.

(١٥٢) Donnini David, **Cristo una vicenda storica da riscoprire**, Roberto Massari Editore, Italia, 1994, p. 81.

(١٥٣) هو يوسف بن متّياس، يهوديّ ولد في الجليل نحو سنة ٣٧ ميلاديّة، من أسرة كهنوتيّة. وكانت أصول أمّه من السلالة الحشمونيّة. نال تربية دينيّة ومدنيّة واسعة. وفي سنة ٦٦ ميلاديّة أوكل إليه اليهود مهمّة تنظيم المقاومة ضدّ الرومانيّين، ولكنّه انقلب، سنة ٦٧، ضدّهم، وانحاز إلى طرف الرومانيين. وبعد فترة من السجن، أصبح مقرّبًا من الأباطرة في روما. وعندما شنّ الرومانيّون حملتهم على أورشليم، سنة ٧٠، اصطحبوه معهم كمترجم. واعتبره اليهود أكبر خائن لأمّته ودينه. وبعد خراب أورشليم عاد إلى روما وبقي فيها حتّى سنة ٩٦ ميلاديّة تاريخ وفاته. قضاها في كتابة أعماله. فأنجز، سنة ٧٩، كتاب الحروب اليهوديّة، وأنجز، سنة ٩٣، كتاب العصور اليهوديّة القديمة. وكتب، نحو سنة ٩٥، ضدّ أبيون وهو عمل دفاعيّ ضد الوثنيّين. ولا تزال مؤلّفاته موضع جدل حتّى اليوم.

(١٥٤) Flavius Josèphe, **La Guerre des Juifs**…, Livre XVIII: 63-64.

وتُعدّ التقاويم المعتمدة على السنة الشمسيّة، الأكثر شيوعًا واستعمالاً بين مجموعة التقاويم التي ظهرت حتّى الآن في العالم، لثبات طول السنة الشمسيّة من جهة، ولارتباط معظم الظواهر الجغرافيّة مع السنة الشمسيّة من جهة أخرى، خاصّة وأنّ التغيرات التي تحدث في بدايات الفترات الأساسيّة (الفصول) تكون محدودة جدًّا، وغير محسوسة.

التقويم المصري القديم

اعتمد المصريّون على السنة الشمسيّة وطولها ٣٦٥ يومًا فقط. وقد قسموا ال ٣٦٥ يومًا من أيام أيام السنة إلى ١٢ شهرًا، كلّ شهر ٣٠ يومًا، والباقي وقدره ٥ أيام تمّت إضافتها إلى نهاية السنة، وأُطلق عليها أيام النسيء، وكانت تُعد عطلة نهاية السنة، وكانت بداية هذا التقويم ٤٢٣٦ ق.م. وهو بدء التاريخ المكتوب لديهم.

في سنة ٢٣٨ قبل الميلاد، قرّر فرعون مصر (بطليموس الثالث) إدخال نظام الكبس وذلك بجعل كلّ سنة رابعة سنة كبيسة ذات ٣٦٦ يومًا، غير أنّ هذا التعديل لم يدم طويلاً. ومع ذلك تمّت الاستفادة منه في وضع التقويمين اليولياني والغريغوري. وفي سنة ٢٨٤ ميلاديّة، اعتمد المصريّون التقويم القبطي، ولا يزال يُعرف بهذا الاسم حتّى الآن، كما عُرف بالتقويم الاسكندراني حيث تبدأ السنة القبطيّة بشهر (توت) الذي تتحدّد بدايته بيوم ٢٩ آب بحسب التقويم اليولياني (الشرقي) الموافق ١١ أيلول بحسب التقويم الغريغوري (الغربي) بطول ٣٠ يومًا للشهر. وقسم المصريّون السنة إلى ثلاثة فصول (فصل الفيضان - آخت) (فصل الشتاء أو البذر - برت) (وفصل الصيف أو الحصاد - شمو).

التقويم الروماني القديم

عند تأسيس روما سنة ٧٣٥ قبل الميلاد. بدأ الرومان باستخدام التقويم القمري أوّلاً، وطول سنتهم ٣٠٤ أيام، موزّعة على عشرة شهور، تبدأ بشهر مارس (آذار)، وتنتهي بشهر ديسمبر (كانون الأوّل) المشتقّة تسميته من الكلمة الرومانية القديمة (ديسم – Decem) التي تعني العدد عشرة. وهذا جعل تقويمهم ليس قمريًّا صرفًا ولا شمسيًّا، وإنّما تقويمًا اعتباطيًّا تقلّ سنته عن السنة القمريّة بمقدار ٥١ يومًا، وعن السنة الشمسيّة بنحو ٦١،٢٥ يومًا، وهذا ما ترتّب عليه حدوث تباين كبير في موقع الشهر الواحد على مدار السنة الفعليّة.

وعندما تقلّد الحكم (نوما بومبيلوس) سنة ٧١٥ –٦٧٢ قبل الميلاد. قام بتعديل التقويم ليصبح ٣٥٥ يومًا، وغيّر أطوال الأشهر العشرة السابقة بإضافة شهرَين آخرَين لتصبح ١٢ شهرًا، والشهران هما: يناير (كانون الثاني) الذي جعله قبل مارس (آذار)، وفبراير (شباط) الذي جعله بعد ديسمبر

(كانون الأوّل). وللتوفيق بين هذه السنة والسنة الشمسيّة أمر (نوما) الكاهن (بابيريوس) بإضافة كلّ سنتين شهر تارة طوله ٢٢ يومًا، وأخرى ٢٣ يومًا على التناوب، بمعنى إضافة ٤٥ يومًا كلّ أربع سنوات، بمتوسّط ١١،٢٥ يومًا يضاف للسنة الواحدة، بحيث تصبح السنة ٣٦٦،٢٥ يومًا، وهذا يعني زيادة يوم واحد على طول السنة الشمسيّة الحقيقيّة، وهذا ما يترتّب عليه تحرّك الفصول ببطء.

وفي سنة ٤٥٢ قبل الميلاد. حدث تبادل بين شهرَي فبراير (شباط) ويناير (كانون الثاني)، حيث أصبح فبراير بعد يناير، وكان قد عُهد إلى رجال الدين بإجراء هذه التعديلات، فتلاعبوا بها واستغلّوها لتنفيذ أغراضهم بالزيادة أو النقص لفترة حكم بعض الحكام. واستمرّت الفوضى في التقويم إلى أن تقلّد حكم روما (يوليوس قيصر) سنة ٦٣ قبل الميلاد.

التقويم اليولياني

عندما وصل يوليوس قيصر إلى الحكم سنة ٦٣ قبل الميلاد، لاحظ وجود خلل في التقويم المتّبع، فما كان إلاّ أن استدعى الفلكيّ المصري الإسكندرانيّ الشهير (سوسيغن) للمساعدة في إصلاح نظام التقويم المعمول به، فكان رأي الفلكيّ:

أوّلاً: التوقّف نهائيًّا عن اتّباع التقويم القمري، وإحلال التقويم الشمسي بديلاً عنه، مع اعتبار طول السنة الشمسيّة ٣٦٥،٢٥ يومًا، واستخدام نظام الكبس، بحيث يكون طول السنة المستخدمة ٣٦٥ يومًا لمدّة ثلاث سنوات، وفي السنة الرابعة يصبح طولها ٣٦٦ يومًا، وذلك عن طريق إضافة يوم كامل إلى آخر يوم من أيام شهر فبراير (شباط)، الذي كان يمثّل عندهم آخر شهر من شهور السنة، وبهذا يصبح طول شهر فبراير ٢٩ يومًا كلّ أربع سنوات وتسمّى هذه السنة كبيسة.

ثانيًا: من أجل إعادة التوافق بين السنة المدنيّة والفصول، كان لا بدّ من تسوية الفرق المتراكم لسنين طويلة والذي كان قد بلغ ٩٠ يومًا حينئذ، وقد عالج (سوسيغن) ذلك بإضافة شهرَي تسوية عدد أيامهما سويةً (٦٧ يومًا) بين شهرَي نوفمبر (تشرين الأوّل) وديسمبر (كانون الأوّل)، ممّا جعل السنة التقويميّة عندئذ، وهي سنة ٤٦ قبل الميلادي، تحتوي على ١٥ شهرًا، بعدد أيام مقداره ٤٤٥ يومًا، وبهذا تمّت تسوية الفارق المتراكم من الأيام. وهكذا نجد أنّ سنة ٤٦ قبل الميلاد، أطول السنوات التي مرّت على روما.

وتكريمًا ليوليوس قيصر سُمّي شهر كونتيلس باسم يوليو، وذلك سنة ٤٤ قبل الميلاد. وفي سنة ٨ قبل الميلاد، وافق مجلس الشيوخ الرومانيّ على تغيير اسم شهر سكستيلس إلى أغسطس تعظيمًا للقيصر أوكتافيوس أغسطس الذي انتصر على أنطونيو في موقعة أكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد. كما حدث بعض التغيير في طول بعض الأشهر، وعدّل شهر شباط (فبراير) إلى ٢٨ يومًا للبسيطة و٢٩ يومًا للكبيسة، ولا يزال التعديل متّبعًا على الشهور حتّى يومنا هذا.

وتتمثّل إحدى نقاط الخلل الرئيسة في التقويم اليوليانيّ في اعتبار طول السنة ٣٦٥,٢٥ يومًا تمامًا، وفي ذلك زيادة عن طول السنة الشمسي الحقيقي بمقدار ١١ دقيقة و١٤ ثانية، أي حوالي ٠,٠٠٧٨ من اليوم سنويًّا. وهذا ما يجعل الفرق إذا تراكم يصبح يومًا واحدا في كلّ ١٢٨ سنة، إذ إنّ الفارق وصل إلى حوالي عشرة أيام في أوائل القرن السادس عشر الميلاديّ. ولهذا الفرق المتراكم تأثير واضح مع تقدّم الزمن على مواعيد عيد الفصح الذي يشكّل أحد المعالم الرئيسة في التقويم الكنسي، لا يجوز معه إغفاله. كما إنّه بتوالي السنين، ومع ازدياد الفرق، يُحدث تحوّلاً في مواعيد الفصول في السنة المدنيّة، بحيث لا تعد تتوافق مع مواعيدها الحقيقيّة في السنة الشمسيّة.

وعلى الرغم من الخلل الموجود في التقويم اليوليانيّ، فقد بقي معمولاً به في معظم أنحاء العالم حتّى سنة ١٥٨٢، أي طوال فترة ١٦٢٧ سنة وأكثر. كما إنّ بعض الكنائس الشرقيّة لم تعترف بالتقويم الذي جاء بعده، وبقيت تأخذ به حتّى الآن، ولذا فقد عُرف بالتقويم الشرقيّ، ولا تزال تؤرّخ وفقه العديد من الأحداث في أصقاع عديدة من العالم.

التقويم الغريغوريّ

يُنسب هذا التقويم إلى البابا (غريغوريوس الثالث عشر) الذي قام بإجراء تعديلات على التقويم اليوليانيّ. فمنذ سنة ١٤٧٤، وجد البابا سيكستيوس الرابع ضرورة العمل على إصلاح الثغرات في التقويم اليوليانيّ مستعينًا بالفلكي ريجيو مونتانوس(١٥٥). وما إن جاء البابا غريغوريوس الثالث عشر حتّى شرع في إصلاح التقويم المعمول به عندئذ بعد ملاحظة الاعتدال الربيعي الحقيقي الذي وقع في ١١ مارس (آذار) وفق التقويم اليولياني، وفي ذلك خطأ مقداره ١٠ أيام ما بين سنة ٣٢٥ وسنة ١٥٢٨، وقد وقع في ٢١ مارس. فاستعان البابا باليسوعي كريستوفرو كالفيو المعروف بكلافيوس(١٥٦) لإجراء التعديلات اللازمة. وقد تمّ نشر التقويم الجديد بصورته المصحّحة في كتاب عنوانه (التقويم الروماني الغريغوري - روما ١٦٠٣). ومن براعة كلافيوس دُعي في تاريخه بإقليدس القرن السادس عشر. وارتأى عمل تعديلَين حتّى يستوي موضوع التقويم، هما:

أوّلاً: معالجة الفرق المتراكم في التقويم اليوليانيّ الذي بلغ حتّى سنة ١٥٨٢، مقدار ١٠ أيام. وقد تمّ ذلك بحذف ١٠ أيام من شهر أكتوبر (تشرين الأوّل) سنة ١٥٨٢، معطيًا ليوم الجمعة الموافق، بحسب التقويم اليوليانيّ، للخامس من شهر أكتوبر، تاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ غريغوريّة. وهكذا عاد الاعتدال الربيعي إلى ٢١ مارس (آذار)، وعلى ضوء ذلك أصدر البابا غريغور الثالث عشر براءة بابويّة في ٢٤ شباط سنة ١٥٨٢.

---

(١٥٥) Johannes Müller von Königsberg, Regiomontanus.

(١٥٦) Christophorus Clavius.



Johannes Müller von Königsberg, Regiomontanus



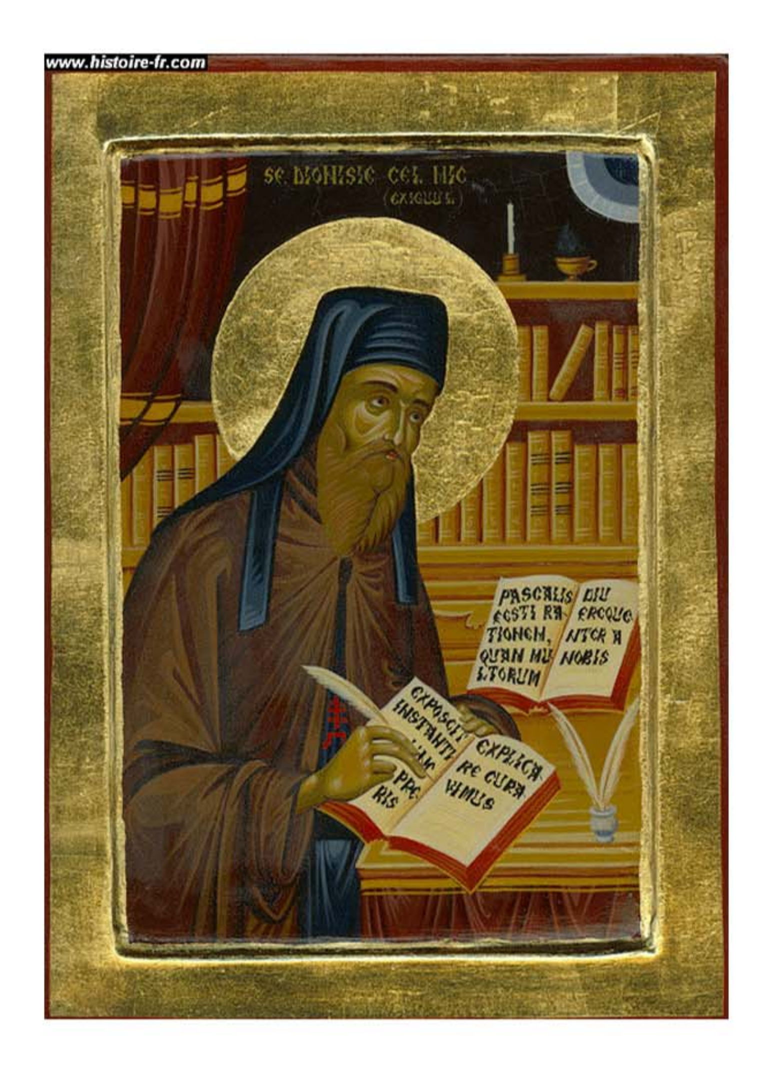
Christophorus Clavius

ثانيًا: معالجة التباين الموجود ما بين السنتَين اليوليانيَة والشمسيّة والبالغ ٠,٠٠٧٨ من اليوم في السنة الواحدة، والذي يصل إلى ثلاثة أيام كلّ أربعة قرون. وهنا لجأ كلافيوس إلى نظام الكبس للتخلّص من الثلاثة أيام كلّ ٤٠٠ سنة، إذ قرّر اعتبار كلّ السنين المئويّة التي لا تقبل القسمة على ٤٠٠، سنين بسيطة، والتي تقبل القسمة على ٤٠٠ كبيسة. فالسنين ١٥٠٠، ١٦٠٠، ١٧٠٠، ١٨٠٠، ١٩٠٠، ٢٠٠٠، ٢٤٠٠ سنين كبيسة في التقويم اليوليانيّ، في حين لا نجد سوى السنين: ١٦٠٠، ٢٠٠٠، ٢٤٠٠ كبيسة في التقويم الغريغوريّ. وعلى هذا فالسنوات الكبيسة في التقويم الغريغوريّ هي التى تقبل القسمة على أربعة ما عدا السنين المئويّة لا تكون كبيسة إلاّ إذا كانت تقبل القسمة على ٤٠٠. وبهذه الطريقة اقترب طول السنة التقويميّة كثيرًا من طول السنة الشمسيّة، حيث تناقص طول السنة التقويميّة اليوليانيّة من ٣٦٥,٢٥ يومًا إلى ٣٦٥,٢٤٢٥ يومًا وفق التقويم الغريغوريّ، وهذا قريب جدًّا من القيمة الحقيقية للسنة الشمسيّة (٣٦٥,٢٤٢٢ يومًا). وعلى ذلك فإنّ الخطأ في التقويم الغريغوري يكون بحدود ٢٦ ثانية في السنة الواحدة، وهذا أيضًا يمكن أن يتراكم خلال ٣٣٠٠ سنة ليصبح يومًا كاملاً. ويمكن علاجه بإنقاص يوم من هذه الفترة، بأن تجعل سنة ٤٠٠٠ ميلاديّة بسيطة.

ولقد وصل الفارق في القرن العشرين ما بين التقويمَين (اليولياني والغريغوري) إلى ١٣ يومًا؛ ١٠ أيام منها هي التي بلغته في عهد غريغوريوس الثالث عشر في القرن السادس عشر، والثلاثة أيام الباقية هي نتيجة اعتبار السنوات ١٧٠٠، ١٨٠٠، ١٩٠٠، كبيسة وفق التقويم اليوليانيّ، بينما لا تُعدّ كبيسة بحسب التقويم الغريغوري، علمًا أنّ سنة ١٦٠٠ ظلّت ثابتة لكونها كبيسًا في كلا التقويمَين. وهكذا نجد في أيامنا هذه أنّ يوم الأربعاء ٢٧ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٨٩ غريغوريّ يوافق يوم الأربعاء ١٤ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٨٩ يوليانيّ. ويوم الأحد الأوّل من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٨٩ غريغوريّ، يوافق الاثنين ١٩ ديسمبر (كانون الأوّل) سنة ١٩٨٨ يوليانيّ... وهكذا. وعيد الميلاد الذي يصادف في ٢٥ ديسمبر وفق التقويم اليوليانيّ (الشرقي) يوافقه ٧ يناير وفق التقويم الغريغوري.

ونتيجة لعدم تبنّي الكنائس الشرقيّة للتقويم الغريغوري الذي أخذت به الكنيسة الغربيّة، بات يُطلق على التقويم الغريغوريّ اسم التقويم الغربيّ تمييزًا له عن التقويم الشرقيّ (اليولياني). ولم تتبنّ دول العالم التقويم الغريغوري فور إعلانه، باستثناء بعض الدول الغربيّة الكاثوليكيّة، أمّا روسيا فتأخّرت حتى سنة ١٩١٨، وتبع ذلك دول أخرى كثيرة في أوروبّا وخارجها، بحيث أصبحت معظم دول العالم حاليًّا تقرّه وتعتمد عليه.

بداية العصر الميلادي (المسيحي) تكون في سنة ١ ميلاديّة، والسنة التي تكون قبل هذه البداية هي سنة ١ قبل الميلاد. وهذا يعني عدم وجود سنة صفر بعد الميلاد أو قبله، لأنّ الرومان لا يعتبرون العدد صفر كعدد ذا قيمة، وبالتالي لم يُدخلوه في حساباتهم التقويميّة. ويُعطي هذا الترتيب مجالاً رحبًا للمناقشة والجدل فيما يتعلّق بنهاية أي قرن وبداية القرن التالي، غير أنّه نقاش لا جدوى منه، ولا وجود للدهشة أو الخلل في ذلك.



Dionysius Exiguus

وفي أيامنا الحاليّة، فإنّ أيًّا من التقويمَين اليولياني والغريغوري يؤرّخان ببداية العصر الميلاديّ، أي مع ميلاد المسيح. ويعود تحويل التأريخ اليولياني إلى ميلاد المسيح للراهب ديونيسيوس إكسيغيوس(١٥٧) الذي قام بإجراء ذلك في سنة ٥٣٢ ميلاديّة، عندما اعتمد على الروايات التي تشير أن ميلاد المسيح كان في يوم ٢٥ ديسمبر (كانون الأوّل) سنة ٧٥٤ رومانيّة، ولذا اعتبر أنّ اليوم الأوّل من شهر يناير (كانون الثاني) من سنة ٧٥٤ رومانيّة بداية التاريخ الميلادي، وهي بداية أوّل سنة ميلاديّة. فالتاريخ الروماني يزيد بمقدار ٧٥٣ سنة على التاريخ الميلادي. علمًا أن السنة الحقيقيّة لمولد المسيح أسبق ممّا تقدّم بأربع سنوات، أي في ٢٥ ديسمبر سنة ٧٥٠ رومانيّة، والبعض يعتبرها أسبق بسبع سنوات. وما نريد قوله هو إنّ الميلاد الحقيقيّ للمسيح أسبق من ميلاده التقويميّ. وعليه يجب أن نميّز ما بين التاريخ الميلاديّ، وميلاد المسيح، وأنّ اصطلاح قبل الميلاد أو بعده تأريخ لا يُشير بدقّة إلى ميلاد المسيح فعليًّا.

(١٥٧) Dionysius Exiguus، عاش في القرن السادس الميلادي.

رابعًا: متى ولد يسوع؟

يستند هذا التفصيل على التقويم الغريغوريّ المتّبع حاليًّا.

إذا عدنا إلى نصّ الإنجيليّ لوقا في محور كلامه عن بدء رسالة يوحنّا المعمدان: "**في السنة الخامسة عشرة من حُكم تيباريوس قيصر، وإذ كان بنتيوس بيلاطس حاكمًا على اليهوديّة، وهيرودس أمير الربع على الجليل، وفيلبّس أخوه أمير الربع على أبيلينة، وحنّانا وقيافا عظيمَي الأحبار، أُلقيت كلمة الله إلى يوحنّا بن زكريّا، فجاء إلى ناحية الأردن ينادي بمعموديّة التوبة...**"(١٥٨)، ماذا نرى؟

حكم هيرودس أنتباس الجليل بين السنوات ٤ قبل الميلاد إلى ٣٩ ميلاديّة. وحكم أخوه فيلبّس من ٤ قبل الميلاد إلى ٣٣ ميلاديّة. وحكم تيباريوس إمبراطورًا وحيدًا من سنة ١٤ إلى سنة ٣٦ ميلاديّة. أمّا قيافا فكان رئيسًا للكهنة بين السنوات ٢٨ إلى ٣٨ ميلاديّة.

نستنتج أنّ التاريخ الأنسب للحكم على يسوع كان بين السنوات ٢٨ إلى ٣٣ ميلاديّة، والأفضل اعتبار الحكم قد تمّ سنة ٣٠ ميلاديّة.

وبحسب الأناجيل، ولد يسوع على عهد هيرودس الكبير، وفي بيت لحم تحديدًا.

ما نعرفه عن هيرودس الكبير أنّه مات سنة ٤ قبل الميلاد، وبالتالي يجب أن يكون ميلاد يسوع قد تمّ قبل موت هيرودس.

ونعلم من المؤرّخ يوسيفوس أنّ الإمبراطور ماركوس أنطونيوس قد عيّن هيردوس الكبير ملكًا بين السنوات ٤٤ إلى ٤٠ قبل الميلاد، ونعلم أنّ هيرودس قد استلم الملك فعليًّا سنة ٣٧ قبل الميلاد، وأنّه حكم ٣٧ سنة من تاريخ تعيينه، و٣٤ سنة من تاريخ استلامه فعليًّا. ونعلم أنّ فيلبّس ابن هيرودس قد مات بعد ٣٧ سنة من الحكم، أي سنة ٣٤ ميلاديّة.

ونعلم من إنجيل لوقا أنّ يسوع كان في الثلاين من عمره عندما بدأ رسالته(١٥٩). ونعلم أنّ الاحصاء الأوّل هو الذي أجبر يوسف ومريم على الذهاب إلى اليهوديّة للاكتتاب(١٦٠).

ونعلم أنّ كويرينيوس والي سوريّة قد مات في روما سنة ٢١ ميلاديّة. ونعلم أنّه كان واليًا بين السنوات ٦ إلى ٩ ميلاديّة. لذلك نطرح السؤال: هل المعلومات التي يُعطيها لوقا غير دقيقة؟ كلاّ!

وما يؤكّد فرضيّة وجوده في سوريّة هو العرف الروماني بأنّ يُرسل مساعد للوالي الأصيل يبقى إلى جانبه فترة من الزمان يتحضّر ليُصبح واليًا، وبالتالي فمن الممكن وجود كويرينوس عند ميلاد المسيح.

---

(١٥٨) لوقا ٣: ١-٤.

(١٥٩) لوقا ٣: ٢٣.

(١٦٠) لوقا ٢: ١-٧.

ذكر المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس أنّ هيرودس الكبير قد مات بعد خسوف للقمر(١٦١). وقد أثبت علماء الفلك أنّ الخسوف قد حصل في الثالث عشر من آذار سنة ٤ قبل الميلاد. إذًا يجب أن تكون ولادة يسوع، كما سبق أن أشرنا، في هذه السنة.

ولكنّ خسوفات أخرى أثبتها علماء الفلك: منها سنة ٢ قبل الميلاد، وسنة ١ قبل الميلاد، وفي الثامن من تشرين الأوّل سنة ٢ ميلاديّة، وفي الرابع من أيار والثامن والعشرين من تشرين الأوّل سنة ٣ ميلاديّة، وفي الثالث من آذار والسادس عشر من تشرين الأوّل سنة ٦ ميلاديّة. فأيّ هذه التواريخ صحيح؟

نذهب إلى معطيات أخرى.

"كان في أيام هيرودس ملك اليهوديّة كاهن اسمه زكريّا من فرقة أبيّا وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات. وكانا كلاهما بارّين أمام الله سالكَين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد إذ كانت أليصابات عاقرًا. وكانا كلاهما متقدّمَين في أيامهما. فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله بحسب عادة الكهنوت، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الربّ ويبخّر. وكان كلّ جمهور الشعب يصلّون خارجًا وقت البخور. فظهر له ملاك الربّ واقفًا عن يمين مذبح البخور. فلمّا رأه زكريّا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأنّ طلبتك قد سمعت وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتسمّيه يوحنّا"(١٦٢).

قسم اليهود الفرق الكهنوتيّة التي تُصلّي في الهيكل إلى أربع وعشرين فرقة، وأُعطي لكلّ فرقة أن تصلّي مرّتين في السنة، ووضعوا جدولاً زمنيًّا لكلّ الفرق. وكانت فرقة زكريّا هي الثامنة. وبحسب المكتشفات الأثريّة فإنّ دور الفرقة الثامنة كان: أوّلاً: في الشهر الثالث اليهودي (أيلول وتشرين الأوّل)، وثانيًا: في الشهر الثامن اليهودي (حزيران). فيكون الحبل بيوحنّا قد تمّ إمّا في أيلول-تشرين الأوّل أو في حزيران.

وبعد ستّة أشهر من حبل أليصابات، ذهب الملاك إلى مريم. فإذا كان الحبل بيوحنّا قد تمّ في الشهر الثالث اليهودي (أيلول-تشرين الأوّل) يكون الحبل بيسوع قد تمّ في آذار. وإذا كان الحبل بيوحنّا قد تمّ في الشهر الثامن اليهودي (حزيران)، يكون الحبل بيسوع كانون الأوّل. لذلك تصحّ نظريّة الحبل في آذار، والولادة في كانون الأوّل، إذًا ولد يسوع في شهر كانون الأوّل من سنة ٤ قبل الميلاد على وجه التقريب. ويبقى باب الاجتهاد مفتوحًا.

---

(١٦١) Flavius Josèphe, **La Guerre des Juifs**..., livre XVII: 167.

(١٦٢) لوقا ١: ٥-١٣.

خامسًا: إشكاليّة تاريخيّة حول إحصاء كويرينيوس

"**وفي تلك الأيام، صدر أمر من أوغسطس قيصر بإحصاء جميع المسكونة. وجرى هذا الإحصاء الأوّل إذ كان كيرينيوس حاكم سوريّة**"(١٦٣).

تُشكّل هذه الآية في إنجيل لوقا، بالنسبة إلى عدد من الباحثين مصدرًا تاريخيًّا مهمًّا إزاء غير من الباحثين المشكّكين في إنجاز كويرينيوس لهذا الإحصاء.

غير أنّ ما جاء في هذه الآية اللوقاويّة يضع العلماء أمام عدد من الإشكاليّات التي سخّروا كلّ الجهود لحلّها. وبما أنّ هذه الآية عند لوقا تُسبّب إشكاليّة للباحثين في تاريخ إمبراطوريّة روما، فهي بدون أيّ شكّ تضع النصّ الإنجيليّ أمام إشكاليّات تستوجب البحث والحلّ.

في الحقيقة ننطلق إشكاليّة الإحصاء تاريخيًّا من المصادر التي استند عليها المؤرّخون، وقد أوقعتهم في حيرة من أمرهم.

وبما أنّ هناك إجماع من المؤرّخين لاعتبار نصّ لوقا كمرجع تاريخيّ موثوق، فقد استعملوه في مجابهة آراء بعضهم للبعض الآخر. وصار كلّ منهم يرتكز إلى هذه الوثيقة التاريخيّة أو تلك لدحض رأي الآخر.

ننطلق من مشكلة "مسكونيّة" الإحصاء.

لم يكن هذا الإحصاء "مسكونيًّا" أي شاملاً، على عكس ما جاء في إنجيل لوقا، بل محلّيًّا. أمّا ما قصده جميع مَن أتوا على ذكره في وثائقهم، فقد رأى المؤرّخون أنّ هؤلاء استعملوا كلمة "مسكونة" بمعنى "الولايات الجديدة" التي خضعتْ لحكم الإمبراطوريّة الرومانيّة ابتداءً من عهد غايوس يوليوس وصولاً إلى عهد أوكتافيانوس.

ولقد أثبتت الوثائق أنّ الإمبراطور أوكتافيانوس أراد أن يكون هذا الإحصاء شاملاً لجميع القطاعات: السكّان، الجيش، البُنى الاقتصاديّة.

أمّا الحديث عن إحصاء "مسكونيّ" بالمفهوم الأشمل، فهذا قد حصل في آخر أيام أوكتافيانوس سنة ١٤ ميلاديّة، وعُرف في دوائر روما باسم "إحصاء الشعب الرومانيّ"(١٦٤). وقد اعتبر بعض المؤرّخين أنّ هذا هو الإحصاء الأوّل العام والشامل. وبالتالي يكون لوقا قد أوقع نفسه وأوقعنا في إشكاليّة تاريخيّة. فهل هذا صحيح؟

كلاّ، والكلمة المفتاح التي تنفي عن لوقا إمكانيّة ارتكابه لخطأ تاريخيّ، هي "الأوّل" وفي اليونانيّة (Προτος) التي لا يُحصر معناها بـ "أوّل"، بل تعني أيضًا "سابق". والمقصود سيكون أنّ هذا الإحصاء كان "سابقًا للإحصاء اللاحق".

---

(١٦٣) لوقا ٢: ١-٢.

(١٦٤) Census Populi Romani.

وهناك رأي آخر لبعض المؤرّخين الذين اعتبروا أنّ الإحصاء كان بالفعل "شاملاً ومسكونيًّا" وقد بدأ وامتدّ لسنوات، وكان تدريجيًّا شمل مختلف أرجاء الإمبراطوريّة.

وبغضّ النظر عن هذه الإشكاليّة في تحديد الإحصاء، يبدو أنّ لوقا قد أوقعنا في إشكاليّة ثانية لا علاقة لها بموضوع الإحصاء لا من قريب ولا من بعيد.

مَن يُتابع نصّ الإنجيليّ لوقا عن ميلاد يسوع، ينتبه إلى أنّ الميلاد لم يكن قد تمّ! وبالتالي نحن لا نـزال على عهد هيرودس الأوّل الذي مات سنة ٤ ميلاديّة!

وأنّ هذا الإحصاء قد حصل قبل سنة ٤ ميلاديّة: تاريخ موت هيرودس الأوّل، وقبل وصول ابنه أركيلاوس وقبل تعيين كويرينيوس نفسه واليًا على منطقة اليهوديّة وسوريّة!

فهل كانت هناك فترة انتقاليّة لكويرينيوس أقام خلالها في مركزه بسوريّة أوّلاً قبل أن تشمل ولايته منطقة اليهوديّة؟ أي هل حكم كويرينيوس سوريّة أوّلاً، ثمّ وتوسّع حكمه في مرحلة لاحقة؟

الجواب ربّما، ولكنّ الحقيقة أنّ لوقا لم يقع في أخطاء تاريخيّة، بل هي الترجمات الجديدة للأناجيل ومن بينها العربيّة، وتحديدًا ترجمات القرن العشرين، هي التي أوقعت المؤرّخين في أخطاء نصيّة من جهة، وأخطاء تاريخيّة من جهة ثانية.

أتوقّف عند الترجمات العربيّة.

لقد ذكر لوقا ما نقلتْه، بإمانة ودقّة رغم الضعف اللغويّ، واحدة من أُوَل الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس، وقد أنجزها يعقوب بن أبي الغيث الدبسي الماروني في روما سنة ١٦٩١، وترجم حرفيًّا: "**ولمّا كان في تلك الأيام، برز الأمر من أُغسطس قيصر ليُكتب جميع شعوب عَمَلِه. وهذه الكتابة الأولى في ولاية قرينيوس على الشام**".

وقد حافظت الترجمة اليسوعيّة، في أواخر القرن التاسع عشر، على الأمانة مع إضفائها جمالاً للترجمة ورونقًا، وجاء نصّها: "**وفي تلك الأيام، صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يُكتتب جميع المسكونة. وجرى هذا الاكتتاب قبل ولاية كيرينيوس على سوريّة**"(١٦٥).

نحن نراها وقد فهمت معنى كلمة (Προτος) بمعناها الثاني أي "السابق"، وجاءت ترجمتها "وجرى هذا الاكتتاب قبل ولاية كيرينيوس على سوريّة".

وهنا نفهم أنّ الإحصاء بدأ قبل أن تشمل سلطة كويرينيوس اليهوديّة.

(١٦٥) لوقا ٢: ١-٢.



إحصاء كويرينيوس

وخلاصة القول: لا يُشكّل هذا الإحصاء الأوّل خلال ولاية كويرينيوس على اليهوديّة أو قبلها مشكلة بحدّ ذاته، بل المشكلة في تحديد تاريخه. فلا يمكن أن تكون ولادة يسوع قد حصلت بعد السنة الرابعة بعد الميلاد؟ وفي جميع الأحوال سيبقى فضل كلّ من أوكتافيانوس وكويرنينوس بتدوين اسم يسوع المسيح في "سجلاّت القيد المدني" مؤبّدًا، وسيظلّ وثيقة تدحض أيّ زعم لاحق يمكنه أن ينفي مجيء يسوع تاريخيًّا.

سادسًا: قصّة ولادة يسوع وملحقاتها؟

"أمّا ميلاد يسوع المسيح، فكان هكذا: لمّا كانت مريم أمّه مخطوبة ليوسف، وُجدت قبل أن يسكنا معًا حبلى من الروح القدس... ولمّا ولد يسوع في بيت لحم اليهوديّة، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس قدموا من المشرق وقالوا: أين المولود ملك اليهود؟ فقد رأينا نجمه في المشرق فجئنا لنسجد له..."(١٦٦).

تبعد بيت لحم عن الناصرة الحاليّة مائة وخمسين كيلومترًا، وهذا يعني أنّ المسافر إليها يقضي ثلاثة أيام أو أربعة على الطريق. نتخيّل كم كان السفر شاقًّا على مريم الحبلى في شهرها التاسع.

بعد وصولهما إلى بيت لحم توجّها إلى نوع من الخان مكشوف (لا سقف له)، وكان يعجّ بالمسافرين المتوجّهين كلّ إلى منطقته للاكتتاب. ولذلك يمكن الاعتقاد أنّ اختيار عدم المكوث في هذا الخان يعود إلى قرار اتّخذه كلّ من يوسف ومريم. فتوجّها إلى حقل قريب من الخان، بحيث يمكن ليوسف أن يلجأ إلى أقرب شخص يراه إذا حدثت مضاعفات لمريم أثناء وضعها لابنها. ويبدو أنّهما اختارا مكانًا قريبًا من مكان وجود الرعاة في البريّة القريبة من الخان.

وتستحقّ قصّة النجم الذي ظهر في المشرق التوقّف عندها خاصّة أنّ روايات كثيرة حيكت حول المجوس.

هل فعلاً ظهر نجم غريب في المشرق دفع المجوس إلى القدوم؟

أثبت علماء الفلك حدوث ظاهر غريبة في الفلك بين السنوات ١٢ إلى ٦ قبل الميلاد. كان أوّلها بين سنة ١٢-١١ قبل الميلاد، عندما ظهر مذنّب هالي وأثار دهشة سكّان الأرض في تلك الحقبة. ولكنّ ميلاد يسوع في هذا التاريخ مستبعد.

وحدث التقاء لنجوم مشعّة ما بين السنوات ٨ إلى ٦ قبل الميلاد، وأدهش الناس. ولكن هل يمكن أن يكون ميلاد يسوع قد حدث بين هذه السنوات؟ لا جواب فعليًّا.

"يوهانس كيبلر (المتوفّي سنة ١٦٣٠)، قدّم حلاً ما زال، في جوهره، مطروحًا من قِبَل فلكيّين معاصرين. لقد أجرى كيبلر حسابات تشملان السنتَين ٧-٦ قبل المسيح- اللتَين، تُعتبران اليوم السنة المحتملة لولادة يسوع، حصل التقاء بين الكواكب المشتري وزُحل والمريخ. كان هو نفسه قد دوّن، سنة ١٦٠٤، التقاءً مماثلاً. أُضيف إليه أيضًا نجم متألّق. بهذه العبار يُشار إلى نجم ضعيف أو بعيد جدًّا حصل فيه انفجار هائل، بحيث ينبعث منه لمعان قويّ على مدى أسابيع وشهور. كان كيبلر يعتبره النجم المتألّق جديدًا. كان يُفكّر أنّ الالتقاء الذي حصل أيام يسوع قد انضمّ إليه أيضًا نجم متألّق"(١٦٧).

---

(١٦٦) متّى ١: ١٨-٢: ١٢.

(١٦٧) راتسينجر جوزيف، **يسوع الناصري**، الجزء الثالث، طفولة يسوع، طبعة أولى، المطبعة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠١٥، صفحة ١١٤. ترجه عن الألمانيّة نبيل الخوري.

خلاصة القول، إنّ ميلاد يسوع حدث تاريخيّ مؤكّد وإن شابته بعض الالتباسات، ويمكن للعلم في المستقبل أن يُزيل الغبار عن هذه الالتباسات.

أمّا مجيء المجوس فتبريره أنّهم إلى بيت لحم ليُعاينوا ولادة الثانيّة فارهران فرزند أمير السلام المنتظر.

في الواقع، تنفي هذه الحقيقة التاريخيّة فرضيّات وأساطير كثيرة عن المجوس الذين حضروا من فارس لتقديم الهدايا إلى الطفل يسوع المولود. ولكنّ مجيئهم لم يكن لمعاينة ولادة المسيح نفسه، إنّما هذا المولود من عذراء، والذي تشهد على ولادته الكواكب، هو أمير السلام وقد حلّ في هذا الطفل.

كان هذا اعتقاد المجوس وسبب مجيئهم. غير أنّ هذا المجيء لم يكن خاليًا من الأخطار، فهيرودس كان متحالفًا مع الرومانيّين في محاربتهم للإمبراطوريّة الفارسيّة، وبالتالي سيُعتبر دخولهم منطقة نفوذه نوعًا من التهديد، لا سيّما وأنّ السبب متعلّق ببحثهم عن ولادة ملك. ولا يجب أن ننسى مخاوف الرومانيّين وهيرودس معًا من نفوذ الفرس، فسوريّة كانت جزءًا من الإمبراطوريّة الفارسيّة حتّى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد عندما ضمّها الاسكندر الكبير إلى إمبراطوريّته، وورث حكم الرومانيّين.

ولذلك نفهم اضطراب هيرودوس: "**لمّا ولد يسوع في بيت لحم اليهوديّة، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس قد أقبلوا من المشرق إلى أورشليم قائلين: أين المولود ملك اليهود؟ فإنّا رأينا نجمه في المشرق فوافينا لنسجد له. فلمّا سمع هيرودوس الملك اضطرب هو وكلّ أورشليم معه. وجمع كلّ رؤساء الكهنة وكتبة الشعب واستخبرهم أين يولد المسيح، فقالوا له في بيت لحم اليهوديّة... حينئذ دعا هيرودس المجوس سرًّا، وتحقّق منهم زمان النجم الذي ظهر، ثمّ أرسلهم إلى بيت لحم قائلاً: اذهبوا وابحثوا عن الصبيّ متحقّقين وإذا وجدتموه فأخبروني لكي أذهب أنا أيضًا وأسجد له...**"(١٦٨).

كيف لا يخاف هيرودوس وهو حليف الرومان في محاربة بلد الفرس؟

ولكنّ قصّة غريبة أخرى تسترعي الانتباه، أعني بها قصّة الرعاة! كيف يمكن للرعاة أن يكون في المكان أو في الجوار في هذا البرد القارص؟ وأين هي الأعشاب التي يمكن أن يقضمها الخراف؟

"**وكان في تلك الناحية رعاة يبيتون في البريّة، يتناوبون السهر في الليل على رعيّتهم... وجاؤوا مسرعين، فوجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعًا في المذود...**"(١٦٩).

(١٦٨) متّى ٢: ١ إلى آخر الفصل.

(١٦٩) لوقا ٢: ٨-٢٠.

الجواب بسيط جدًّا، لأنّ هيرودس الكبير كان قد أصدر أمرًا منع بموجبه دخول الرعاة مع أغنامهم إلى داخل المدن لأنّهم كانوا قذرين ولصوصًا، وبالتالي يكون من المنطقيّ وجودهم في الأحراش القريبة المجاورة.

"قم فخذ الصبيّ وأمّه واهرب إلى مصر، وأقم هناك حتّى أُعلمك... فقام وأخذ الصبيّ وأمّه ليلاً ولجأ إلى مصر. فأقام هناك إلى وفاة هيرودس..."(١٧٠).

"ولمّا حان أوان التطهير بحسب شريعة موسى، صعدا إلى أورشليم ليُقدّماه للربّ... وكان في أورشليم رجل بارّ تقيّ اسمه سمعان..."(١٧١).

في الواقع، قصّة الذهاب إلى مصر والعودة منها غريبة من حيث تحديد فترتها الزمنيّة. وغريبة أيضًا في موعدها. والمقارنة بين نصيّ متّى ولوقا تجعلنا نخمّن أنّ الهياج الذي حصل بعد ولادة يسوع، ومجيء الرعاة والمجوس فلم يكن في يوم الولادة عينه، وأنّ مكوث العائلة في "المغارة" دام أكثر من أسبوع وربّما شهر! وأنّ المدّة الزمنيّة لتحرّي هيرودس عن ميلاد يسوع لم تكن ساعات أو أيامًا، بل ربّما كانت أسابيع أو حتّى أكثر من شهر. وبالتالي لا يمكن لقارئ الأناجيل أن يتخيّل قصّة السفر قبل الميلاد، والميلاد، والهرب إلى مصر، قد تمّ في ليلة وضحاها. وإذا كانت العائلة قد ذهبت إلى أورشليم لتطبيق شريعة التطهير، والتطهير لا يصير إلاّ بعد أربعين يومًا على الولادة، فهذا يعني أنّ العائلة بقيت في بيت لحم أكثر من شهر، وأنّها لم تنطلق إلى مصر إلاّ بعد اللقاء بسمعان الشيخ في أورشليم. ويمكن أن يعني أنّ هياج هيرودس وعزمه على قتل يسوع لم يحصل قبل وصول العائلة إلى أورشليم حيث كُشف أمرها وعُرف مقرّها. وتقودنا مقارنة النصيّن المتّوي واللوقوي وتصديق مضمونهما إلى اعتبار السفر إلى مصر قد تمّ في أوائل شهر شباط، وهذا يعني في فترة مرض هيرودس وقُبيل موته. وبالتالي، لم يكن أحد من أهل البلاط مهتمًّا إلى هذا الحدّ بالاستماع إلى أوامر ملك قد جُنّ وهو الآن يحتضر، ولذلك أوكل المهمّة إلى شرذمة من العسكر الذين لم يؤدّوا دورهم كما يجب وإلاّ لكانوا وجدوا الطفل واقتادوه هو وأهله أحياء إلى أمامه.

انطلاقًا من فرضيّة ولادة يسوع سنة ٤ قبل الميلاد، وهي الأكثر ترجيحًا، يكون انتقال العائلة إلى مصر قد جرى في أواخر شباط أو أوائل آذار من هذه السنة عينها. ولكنّ السؤال الأصعب، أين مكثت في مصر؟ وكم سنة بقيت؟

الجواب على السؤال الأوّل موضع أخذ وردّ حتّى الآن، وقد كُتب عن الموضوع، ولكنّ ما كُتب لا يزال مندرجًا ضمن التقليد المسيحي، لأجل ذلك لا يمكن الاعتماد عليه في البحث التاريخي. أمّا

---

(١٧٠) متّى ٢: ١٣-١٥.

(١٧١) لوقا ٢: ٢٢-٣٥.

الجواب على الثاني فبحسب المؤرّخين يجب أن تكون إقامة العائلة في مصر ثلاث سنوات ونصف، وبالتالي يكون يسوع قد بلغ الرابعة من عمره تقريبًا بعد عودته من الديار المصريّة.

هذه مجمل المعلومات التاريخيّة التي استطعت الركون إليها حول قصّة الميلاد والسفر إلى مصر.

الفصل السابع
قطع رأس يوحنّا المعمدان

"لأنّ هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنّا وأوثقه في السجن من أجل هيروديّا امرأة فيلبّس أخيه إذ كان قد تزوّج بها. لأنّ يوحنّا كان يقول لهيرودس: لا يحلّ أن تكون لك امرأة أخيك! فحنقت هيروديّا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر، لأنّ هيرودس كان يهاب يوحنّا ويعلم أنّه رجل بارّ وقدّيس... وإذ كان يوم موافق عندما صنع هيرودس في مولده عشاءً لعظمائه وقوّاد الألوف ووجوه الجليل، دخلت ابنة هيروديّا ورقصت، فسرّت هيرودس والمتكئين معه. فقال الملك للصبية: مهما أردتِ اطلبي منّي فأعطيك... فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة: أريد أن تعطيني حالاً رأس يوحنّا المعمدان على صحفة..."(١٧٢).

"... هيرودس كان قد أمسك يوحنّا، فأوثقه ووضعه في السجن من أجل هيروديّا امرأة أخيه فيلبّس، لأنّ يوحنّا كان يقول له: إنّها لا تحقّ لك. وأراد أن يقتله، فخاف الشعب لأنّهم كانوا يُعدّونه نبيًّا. ولمّا احتفل هيرودس بذكرى مولده رقصت ابنة هيروديّا في الحفل فأعجبت هيرودس، فأقسم أن يُعطها مهما طلبت... فقالت: أعطني راس يوحنّا المعمدان في صحفة... وأرسل فقطع رأس يوحنّا في السجن..."(١٧٣).

نقرأ قصّة قتل يوحنّا المعمدان عند يوسيفوس المؤرّخ: "أغرم رئيس الربع بهيروديّا، زوجة أخيه... وتجرّأ على التحدّث معها بموضوع الزواج، فقبلت، واتفقا بأن تنتقل إليه بعد أن يعود من روما..."(١٧٤). "وإذ أُبرم الاتفاق، أبحر إلى روما لانتهاء عمل له هناك. وعلمت زوجته سرًّا بالاتفاق الذي صار بينه وبين هيروديّا... فطلبت الذهاب إلى ماخيرا (في الأردن)(١٧٥) على حدود مملكته، ولم يُعرف السبب الذي ذهبت لأجلها"(١٧٦).

"وكان هيرودس يعتقد بأنّها لا تعلم شيئًا... فوصلت عند أبيها، وأخبرته بما كان يُخطّط له هيرودس"(١٧٧).

---

(١٧٢) مرقس ٦: ١٧-٢٩.

(١٧٣) متّى ١٤: ٣-١٢.

(١٧٤) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XVIII: 110.

(١٧٥) Μάχαιρα.

(١٧٦) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro XVIII: 111.

(١٧٧) Ibidem, Libro XVIII: ١١٢.

غاب رئيس الربع ليشترك في معركة بناء على طلب الإمبراطور تيباريوس، ولكنّه خسر وتقهقر جيشه. "**وقد اعتقد بعض اليهود أنّ تدمير جيش هيرودس كان انتقامًا إلهيًّا، انتقامًا عادلاً إزاء ما تصرّفه مع يوحنّا الملقّب بالمعمدان**"(١٧٨). "**في الواقع، كان هيرودس قد قتل هذا الرجل البارّ الذي كان يحضّ اليهود على الحياة المستقيمة والعدالة المتبادلة، وعلى تقوى الله...**"(١٧٩). "**كان كثيرون يحتشدون حوله، لأنّهم بفضل عظاته قد وصلوا إلى مرتبة عليا. وكان لبلاغته أشدّ التأثير... فاعتقد هيرودس أنّه من الأفضل التخلّص منه في وقت مبكّر قبل أن يؤدّي عمله إلى انتفاضة...**"(١٨٠). "**وبسبب مخاوف هيرودس، تمّت قيادة يوحنّا إلى ماخيرا وهناك قتله...**"(١٨١).

نفهم من مقارنة النصوص ما يلي:

لم تحصل أيّة مواجهة بين يوحنّا ورئيس الربع أنتيباس بن هيرودس، إنّما حصل ما هو أخطر، أعني به انتقاد المعمدان لتصرّفات أمام الناس، الأمر الذي اعتبره رئيس الربع تحريضًا مباشرًا عليه. فمَن هو هذا المعمدان ليقف وسط الجموع وينادي: لا يحقّ له أن يتزوّج امرأة أخيه. ونفهم أيضًا المكانة الشعبيّة الكبيرة التي كانت ليوحنّا بين الناس، وأربكت الملك.

من هنا لم يتجاسر رئيس الربع على قتل يوحنّا في منطقة الجليل الأعلى، إنّما ساقه إلى سجن في قلعة ماخيرا حيث أقدم على إعدامه.

وماخيرا تُعرف اليوم باسم "مكاور" وبقربها "قلعة مكاور" ويُقال لها "قلعة المشنقة" أو "قلعة المشانق"، وهي تبعد عن مأدبا في الأردن نحو أربع وعشرين كيلومترًا باتجاه الجنوب، وقريبة من البحر الميّت، وقد جعل هيرودس الكبير من القلعة، سنة ثلاثين قبل الميلاد، محميّة يُدافع منها عن الغزوات. وتسلّمها من بعدها ابنه أنتيباس، وكانا يذهبان للاستحمام والاستراحة فيها. وفي هذه القلعة نفّذ هيرودس الكبير وأنتيباس إعدامات كثيرة من بينها إعدام يوحنّا المعمدان.

وهكذا نفهم كيف "**سمع يوحنّا وهو في السجن بأعمال يسوع...**"(١٨٢)، ونستنتج أنّ المكان الذي سُجن فيه المعمدان كان بعيدًا عن مكان تبشير يسوع.

بقي يوحنّا فترة غير قصيرة في السجن، ربّما دامت شهورًا، قبل تنفيذ حكم الإعدام. ولكنّ الحفلة التي أقامها أنتبياس ورقصت فيها ابنة هيروديّا لا يمكن تحديد مكانها، وعلى الأرجح أنّها كانت في قصره في الجليل، وبالتالي، لم يكن من السهل إصدار الأوامر وتنفيذ الحكم في ساعات

(١٧٨) Ibidem, Libro XVIII: 116.
(١٧٩) Ibidem, Libro XVIII: 117.
(١٨٠) Ibidem, Libro XVIII: 118.
(١٨١) Ibidem, Libro XVIII: 119.

(١٨٢) متّى ١١: ٢.

قليلة. ولا بدّ من أنّ تنفيذ طلب الراقصة قد استغرق عدّة أيام، حاول خلالها أنتيباس بسط جنود في أرجاء الجليل تحسّبًا من ردّة فعل الشارع عليه.

أمّا قصّة الإتيان برأسه فلا جواب عنها حتّى اليوم، ويعرف الجميع القصص الكثيرة التي حيكت حول جثمان المعمدان ورأسه.

---

(١٧٠) متّى ٢: ١٣-١٥.

(١٧١) لوقا ٢: ٢٢-٣٥.

الفصل الثامن
ومضات عن المرحلة التي عاش فيها يسوع

أوّلاً: لماذا التعتيم على طفولة يسوع

لم تكن أرض فلسطين التي عاش فيها يسوع منطقة مثاليّة للعيش برخاء وهناء وبحبوحة، على عكس مختلف مناطق الإمبراطوريّة التي شهدت منذ ولادة يسوع وحتّى نهاية القرن الأوّل الميلادي، ازدهارًا وتقدّمًا وبحبوحة اجتماعيّة.

عاش سكّان هذه الأرض، وقد شاء قدرهم أن تحكمهم الأسرة الهيروديّة، إمّا عبيدًا وعمّالاً بالسخرة، أو محاربين يُدافعون عن إمبراطوريّة يعرفون مسبقًا عداءها لهم.

على السنوات الممتدّة من هيرودس الكبير وصولاً إلى أولاده، لم يعرف سكّان أرض فلسطين الراحة. فقد سخّرهم هيرودس الكبير لبناء مدينة السامرة التي أطلق عليها اسم سبسطية، وبنى مدينة قيصريّة بين يافا وحيفا، وعُرفت بقيصريّة فيلبّس، وأحاط أورشليم بسور كبير، وقام تجديد الهيكل وتوسيع بنائه، وأمضى سنوات ملكه يتفاخر بإنجازاته. وأدخلهم في حروب مع سكّان العربيّة، فلا عجب أن نرى الناس يفرحون ساعة إعلان خبر موته. ولا عجب أن نرى ثورة تقوم ضدّ تولّي ابنه أركيلاوس للحكم الذي كان فاشلاً، فعمّت الفوضى، وتعاظمت الخلافات وحوادث السرقة والقتل. واضطر الرومانيّون أن يستنجدوا بوالي سوريّة وملك العربيّة، فأرسلا كلاهما نحو أربعين ألف جنديّ لإخماد الثورة، وبعد أن أخمدوها، ساقوا نحو ألفي يهوديّ إلى السجون وقتلوهم جميعًا.

وبينما كانت الفوضى تعمّ فلسطين، كان أولاد هيرودس يتخاصمون في روما أمام الإمبراطور تيباريوس، وكان كلّ واحد منهم يُريد أن يُصبح خلفًا لوالده. وأرسل اليهود خمسين رجلاً من الوجهاء إلى روما للتشكّي من مظالم الأسرة الهيروديّة، ولطلب الانعتاق من حكمهم، وانضمّ إليهم عدد كبير من يهود روما. وعندما مثلوا أمام تيباريوس طلبوا منه الخضوع سياسيًّا لوالي سوريّة مع الاحتفاظ باستقلالهم في تعاليم شريعتهم اليهوديّة(١٨٣).

ودامت الجدالات في روما فترة طويلة، وانتهت بقرار من الإمبراطور تيباريوس ألحق فيه فلسطين بولاية سوريّة، وجعل من قيصريّة فيلبّس عاصمة تمثّل الدولة الرومانيّة، فأظهر بذلك احتقارًا لشأن أورشليم ومكانتها. وهكذا أوصل اليهود الرومانيّين إلى سحب السلطة الذاتيّة منهم،

---

(١٨٣) راجع التفاصيل عند في (Flavio Giuseppe, Antichità Giudaiche, Libro XVII).

وتحويلهم إلى شبه مستعمرين. وفي سنة ٦ ميلاديّة(١٨٤)، أُصدر القرار بأن تكون علاقة والي أرض فلسطين مباشرة من الإمبراطور. وأُعطي الوالي صلاحيّات لم تكن موجودة على عهد هيرودوس الكبير، فأصبح قائدًا عامًّا للجيش وحاكمًا ومفوّضًا مباشرًا بجباية الضرائب لصالح الدولة الرومانيّة. وأدّت هذه الإجراءات إلى تفاقم نقمة اليهود على الرومانيّين، وإلى تنامي الشعور بالكراهيّة بين الطرفَين.

وعلى عهد بيلاطس، ابتداءً من سنة ٢٦ ميلاديّة(١٨٥)، تناقص عدد العسكر في أورشليم وقلّت قوّتهم. ولطالما شعر بيلاطس بخوف داخليّ من اليهود، ولذلك استخدم مهندسَين وشقّ طريقًا تصل القدس من الشمال إلى الشرق. وكانت الطريقة من جهة الشرق تصل أورشليم بأريحا عاصمة التجارة آنذاك.

ورأى بيلاطس الوالي شقاء الناس واستمع مرارًا لأخبار معاناتهم. ومن رسالة إلى صديقه سينيكا نتعرّف على ما عاشه(١٨٦)، وفيها وصف أورشليم بأنّها **"العشّ الذي يأوي إليه الفتن"**(١٨٧)، و**"مدينة بائسة، باستثناء بعض الأبنية التي شيّدها هيرودس ليس هناك سوى مبنًى يستحقّ الاهتمام"**(١٨٨). وكان يُخصّص اوقات للتجوّل والتفتيش والاستماع إلى آراء موظّفي الدولة.

وعندما بدأ يسوع بالتبشير كان بيلاطس في قيصريّة، ومنها كان يُصدر أوامره إلى أورشليم ومختلف مناطق وبلدات فلسطين، وقد تمرّدوا مرارًا على أوامره، وخلال فترة حكمه قتل من اليهود أعدادًا هائلة، كما سبقت الإشارة.

وفي عهد أولاد هيرودس الكبير اشتدّت الكراهية بين اليهود، وقتل بعضهم بعضًا، وكثُرت الشرور في أورشليم، وفي مختلف بلدات فلسطين. لذلك يمكننا، في ظلّ هذه الأوضاع، أن نفهم التعتيم على حياة يسوع قبل ظهور للعلن. والأرجح أن يكون من الطبيعيّ لأيّ أسرة أن تهتمّ بإبعاد أولادها ومراهقيها عن الخلطة والخروج الكثير في الشوارع.

ثانيًا: أعظم الصعوبات في تبشير يسوع

عندما أطلّ عهد الدولة الرومانيّة، كانت مدن وبلدات الإمبراطوريّة شرقًا وغربًا تعجّ بحركة روحيّة وأخلاقيّة غريبة الشكل. وفي الواقع أدّى المزج الحضاري إلى دخول عادات وطقوس مـن

(١٨٤) كان عمر يسوع عند صدور القرار نحو عشر سنوات.

(١٨٥) يمكن أن يكون يسوع قد بدأ تبشيره مع بدء ولاية بيلاطس.

(١٨٦) **Letters of Pontius Pilate written during his Governorship of Judaea to his friend Seneca in Rome**, London, 1928. Edited by W. P. Crozier.

(١٨٧) "The nest in which they harbour their seditions".

(١٨٨) "This is a wretched city. Except for the great Herod's works there is scarcely a single building worth a glance".

الشرق على الغرب والعكس. والامر الذي يستدعي الانتباه وجود عدد كبير من المبشّرين والدعاة والمصلحين الاجتماعيّين، أمثال كراتيبّوس (Cratippus)، وأبولونيوس الطواني (Appolonius de Tyan)، وإفدوروس الإسكندري (Evdorus d'Alexandrie)... وغيرهم أيضًا عدد كبير من المشعوذين والسحرة، وكان هؤلاء يتبادلون الأدوار في استقطاب الشعوب نحوهم، إن بالنصائح والخطابات أو بأعمال خارقة. وكانت ردّة فعل الجماهير تتمثّل تارة بالهتافات الهستيريّة والصراخ، وتارة أخرى بتحرّك المشاعر الرافضة منها والمحبّذة. وقد تعاملت الدولة مع هذه الظواهر بعين تشوبها الريبة من جهة، وبسماح غير مباشر من جهة ثانية، بمعنى أنّها لم تحاربها بشكل مباشر. وهكذا نفهم كيف أنّ مشهدًا كمشهد يسوع أو يوحنّا المعمدان لم يسترعِ انتباه المراقبين الرومانيّين، وقد بدا لهم أنّ الأمر هو طفرة إحدى هذه الظواهر التي انتشرت في أرجاء الإمبراطوريّة.

وكان كلّما مات داعية أو مبشّر يخلفه أحد تلاميذه وينوب عنه في التبشير والخطابة، كما هي الحال في المدارس الإغريقيّة الفلسفيّة (المدرسة الفيثاغوريّة، تلاميذ سقراط، تلاميذ أفلاطون...). ولذلك عندما سمع بيلاطس بأخبار هذا الشاب الواعظ يسوع، لم يرَ فيه إلاّ تلميذًا لمبشّر استحوذ على عقول الناس وهو يوحنّا المعمدان. وفي رسالته إلى صديقه سينيكا نقرأ صراحة ما يقوله عن يسوع إنّه تلميذ المبشّر يوحنّا المعمدان، وقد استلم قيادة جماعة يوحنّا بعد أن قُتل يوحنّا المعمدان: "**تذكر أنّي قد كلّمتك عن محرّض آخر يُدعى يسوع ظهر في الجليل... إنّ هذا يسوع جاء أصلاً من الجليل لزيارة يوحنّا. وفي الواقع، كان في اليهوديّة عندما انتشرت أخبار اعتقال يوحنّا، وحينها هرب إلى بلده. هناك، لعب، تمامًا، لعبة معلّمه عينها. وهو يحثّ مواطنيها على أن يكونوا متواضعين (لأجل هذا، أحبّه كثيرًا)، ويتكلّم كثيرًا عن ملكوت مستقبليّ...**"(١٨٩).

انطلاقًا من هذه المعطيات التاريخيّة يصبح واضحًا أنّ السؤال الذي طرحه يسوع على تلاميذه: "**مَن يقول الناس إنّي أنا هو؟**"(١٩٠) كان موضوعيًّا من قبَل مبشّر كيسوع. إذ إنّ أصداء تعاليم هذا المبشّر أو ذاك كانت تنتشر في البلدان بدون أن يعرف العامّة شخصيّة المبشّر. وحتّى الأسرة الهيرودوسيّة نفسها لطالما اقتنعت بأنّ هذا الشخص هو يوحنّا المعمدان "**وقد قام من بين الأموات**"(١٩١).

---

(١٨٩) "You remember I told you that another agitator called Jesus had turned up in Galilee... That this Jesus originally came from Galilee to visit John. He was actually in Judaea when the news spread that John had been arrested, whereupon he fled to his own country. There he is playing exactly the same game as his master. He is exhorting his fellow-countrymen to be humble (I like him for that) and talking large about the coming kingdom".

(١٩٠) متّى ١٦: ١٣.

(١٩١) راجع متّى ١٤: ١-٢.

من هنا وبغضّ النظر عن التفسير الروحيّ الذي يُعطى لهذا النصّ، الذي طرح فيه يسوع السؤال على تلاميذه وجاء الجواب من قبَل بطرس، يبقى السؤال موضوعيًّا، ويبقى ليسوع الحقّ في أن يستفهم عمّا يظنّ الناس أنّه هو وسط جمهرة كبيرة من الدعاة والمبشّرين.

ثالثًا: معجزة تكثير الخبز والسمك

ذكر يوسيفوس المؤرّخ في كتابه الخامس عشر: ٢٩٩-٣١٦ "**في هذه السنة، وهي الثالثة عشرة لملك هيرودس، ضربت المنطقة كوارث كبيرة... وحصل جفاف ولم تأتِ الأرض بالثمار... وانتشرت الأوبئة والأمراض... ونقصت العناية الطبيّة... وإذ كانت الأمور على هذا النحو بدء هيرودس يفكّر في كيفيّة الذهاب لمواجهة الأزمة الحاضرة، ولكنّ المشروع لم يكن بهذه السهولة لأنّ الشعوب المجاورة لم تكن قادرة على بيع القمح... فأخذ الذهب والفضّة من قصره وصكّها عملة، وأرسل هذا المال إلى مصر... وجلب الإعانات... وأظهر حلمه إزاء الاعتراضات... واهتمّ كثيرًا بأن يمرّ الشتاء على مواطنيه بدون خطر... وأشبع لا أقلّ من خمسين ألف رجل كان الجوع قد ضربهم...**".

نقرأ عند كلّ من مرقس ومتّى ولوقا ويوحنّا معجزة الخبز والسمك التي صنعها يسوع في الجليل الأعلى: "**فلمّا سمع يسوع، انصرف من هناك في سفينة إلى مكان قفر... فعرف الجموع ذلك، فتبعوه من المدن سيرًا على الأقدام... ولمّا كان المساء، دنا إليه تلاميذه وقالوا له: المكان قفر... فاصرف الجموع ليذهبوا إلى القرى فيشتروا له طعامًا... فقالوا له ليس عندنا ههنا إلاّ خمس أرغفة وسمكتين... وأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين... فأكلوا كلّهم حتّى شبعوا... وكان الآكلون خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال**"(١٩٢).

يكرّر مرقس الرقم نفسه، أنّ عدد الذين أكلوا كان خمسة آلاف رجل، ويكرّره يوحنّا.
السؤال الذي يطرح نفسه، من أين عرف يوسيفوس عدد الذين سدّ هيرودس جوعهم؟ وكيف عرف الإنجيليّون عدد الرجال الذين أشبعهم يسوع من الخبز؟ لا شكّ في أنّنا نجد نوعًا من التحدّي والتشبيه أو المقارنة بين عمل يسوع وعمل هيرودس، خاصّة وأنّ المعجزة قد حصلت في الجليل الأعلى، الذي كان تحت إدارة هيرودس أنتيباس، الذي أجاع المنطقة وأهلك الناس جوعًا ومرضًا وفاقًا. من هنا نفهم أنّ هذا التصرّف هو نوع من الجواب وضعه الإنجيليّون ليقولوا لأولاد هيرودس: إذا كنتم تميتون الناس ذلاً وقهرًا وجوعًا، ثمّ تشفقون عليهم وتطعمونهم، وتتباهون بإخراج الأموال من خزائنكم وهي أموال هؤلاء الفقراء، وتتبجّحون بأنّكم تنفقونها عليهم، فمعلّمنا أطعم الناس مجانًا وخفّف عنكم أعباء إنفاق ومشاكل في الخزينة.

---

(١٩٢) متّى ١٤: ١٣-٢١.

هكذا نستطيع أن نفهم بعض النصوص الإنجيليّة ضمن إطارها التاريخيّ على الرغم من شدّة تعقيد ذلك الإطار.

الفصل التاسع
محاكمة يسوع

أوّلاً: الهيكل وبركة بيت حسدا

"وكان عيد لليهود، فصعد يسوع إلى أورشليم. وفي أورشليم عند باب الغنم بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا، لها خمسة أروقة. يضطجع فيها جمهور من المرضى بين عميان وعرج وكسحان، ينتظرون تحريك الماء، لأنّ ملاكًا كان ينزل أحيانًا في البركة ويحرّك الماء. فمَن ينزل أوّلاً من بعد تحريك الماء يبرأ من أيّ..."(١٩٣).

لا شكّ في أنّ أورشليم كانت مركز العالم بالنسبة إلى اليهود، لأجل ذلك وجب أن تكون بالمستوى المطلوب مدينة إسرائيل وإلهه. وكان هيكل أورشليم يُشكّل خمسة بالمائة من حجم المدينة، أي إنّه ضخم جدًّا. وعُرف جزء منه باسم جبل الهيكل، وهو مرتفع وقد أنجز بناءه هيرودس الكبير.

بعيدًا من الهيكل كان قصر الحاكم الروماني، وكان مرتفعًا بحيث يُطلّ على المدينة كلّها لتكون تحت مراقبته. وبما أنّ الهيكل كان المكان المقدّس لليهود، وجب أن يحجّ إليه كلّ يهوديّ في عيد الفصح لتقديم الذبيحة والصلاة، وبالتالي، كانت المدينة، في هذه الفترة، تعجّ بالناس، وتشهد ازدحامًا كبيرًا. وأورشليم، على عهد يسوع، كانت عاصمة اليهوديّة وقلبها النابض.

حضر يسوع إلى أورشليم ثلاث مرّات: الأولى، عندما قُدّم صغيرًا إلى الهيكل. والثانية، في الثانية عشرة من عمره. والثالثة، في الأسبوع الأخير من حياته.

قام هيرودس بتوسيع الهيكل وتحصينه. ولأجل هذه الغاية، كبّر جبل الهيكل ليستطيع أن يستقبل مائتَي وخمسين ألف نسمة. وقد نجح بإنجاز عمل منقطع النظير هندسيًّا وجماليًّا. وقد سخّر للعمل ثمانية عشرة ألف شخص. وبدأ العمل قبل ولادة يسوع بنحو خمسة عشرة سنة. هذا وتنبّىء يسوع على هدم الهيكل، وصدقت نبوءته سنة سبعين بعد الميلاد، عندما هدمه الرومان. وفي سنة ١٣٥ ميلاديّة هدم الرومان، على يد الإمبراطور أدريانوس، ما سبق أن تبقّى منه، فلم يبقَ منه إلى يومنا إلاّ حائط المبكى.

وعندما أتى يسوع ودخل الهيكل، فقد مشى في البناء الجديد الذي شيّده هيرودس. وكان ممنوعًا على غير الذكور من اليهود المطهّرين دخوله. أمّا قدس الأقداس، فكان ممنوعًا على غير الكهنة الدخول إليه. وكان ارتفاع الهيكل نحو خمس وأربعين مترًا من الطوابق المشيّدة. ورجّح العلماء أنّ ثقل كلّ حجر كان أكثر من طنّ ونصف الطنّ. وقد كساه بالحجر الأبيض الشبيه بالرخام.

---

(١٩٣) يوحنّا ٥: ١-١٥.

وعندما دخل يسوع أورشليم، في ما يُعرف بيوم الشعانين، كانت المدينة مكتظّة بالحجّاج الذين قدموا لتعييد الفصح، وآخرين لرؤية هذه البناء العظيم. فدخل يسوع معهم حاجًّا، وتوجّه إلى بركة بيت حسدا (ذاتا) لإتمام الفروض الطقسيّة التطهيريّة قبل دخول الهيكل، إذ كان ممنوعًا دخول الهيكل بدون الاستحمام والتطهّر في البركة. وفي تلك البركة المعروفة ببركة الماء الحيّ، صنع معجزة شفاء المخلّع. وبما أنّ الهيكل كان مكتظًّا بالحجّاج القادمين، فقد دوّى صدى المعجزة في جميع أرجاء المدينة. ويُرجّح بعض المؤرّخين أنّ الاحتفال بيسوع (أي ركوب الحمار واحتشاد الجماهير حوله) قد حصل بعد معجزة شفاء المخلّع.

ورأى بعض المؤرّخين أنّ توسيع الهيكل كان يهدف إلى جني كميّات أكبر من المال لخزينة هيرودس وأتباعه من الأحبار. إذ إنّ المدخول الذي كان الهيكل يجنيه من الحجّاج سنويًّا يتخطّى حدود العقل. واعتبر بعض المؤرّخين أنّ عدد الحجّاج من يهود وأممين كان يتخطّى المليون سنويًّا. وقد شيّد هيرودس رواقًا خاصًّا في إحدى مداخل الهيكل ليكون بمثابة متجر للتذكارت والخراف والحمام واليمام والبخور، وجميعها تدخل ضمن طقوس العبادة وتدرّ أموالاً هائلة. ويبدو أنّ هذا الرواق كان على المدخل الرئيس حتّى إنّ يسوع اضطرّ إلى المرور به. والأغرب من ذلك أنّ هيرودس قد فرض دفع بطاقة دخول إلى الهيكل، الأمر الذي أغضب يسوع بالأكثر. وعندما ثار يسوع تضامن معه بعض الحاضرين الناقمين على مثل هذه الإجراءات، ورأوا فيه ثائرًا سياسيًّا، وخاصّة أولئك الغرباء الذين كانوا يجهلون مَن يكون. ولذلك حصلت بلبلة كبيرة، وخاف الأحبار والكهنة.

بالعودة إلى بركة بيت حسدا، فقد كانت مساحتها نحو خمسين متر مربّع، وبالتالي، فقد رأى آلاف الحجّاج معجزة شفاء المخلّع، وتداولها مع الذين لم يروها، فانتشرت في جميع أنحاء أورشليم. من هنا، بدت السلطات اليهوديّة مهدّدة، وكان هذا السبب المباشر للتخطيط لقتله. وهنا ظهر موقف بيلاطس صعبًا جدًّا، إذ إنّه أراد في قرارة نفسه استغلال الأحداث لقمع سلطة اليهود، ولكنّه ربّما خاف من ثورتهم. وفي رسالته إلى صديقه سينيكا نفهم أنّه استخبر عن يسوع وتعاليمه: "**أعلمت قيافا عن التقارير التي تصلني بشأن يسوع**"(١٩٤)، ورأها قريبة من الديمقراطيّة الرومانيّة، خاصّة في ما يخصّ الزواج والأولاد وتعدّد الزوجات والطلاق، وهي أمور شائعة عند اليهود ومرفوضة في المجتمع الروماني.

---

(١٩٤) " I informed Caiaphas of the reports concerning Jesus that were reaching me".

في الواقع، أثبت علماء الآثار في القرن العشرين وجود معبرَين للماء في بركة بيت حسدا. الأوّل، فوهة واسعة يدخل منها الماء، والثاني، فوهة أصغر يخرج منها. واكتشفوا أنّ البركة كانت محاطة بصخور رمليّة ترابيّة اللون مائلة إلى الحُمرة. لذلك، عندما كانت المياه تتدفّق من فوهة المصدر، كان الوحل يختلط بالمياه ويُضفي عليها لونًا مائلاً إلى الحُمرة. وبما أنّ فوهة مصدر المياه أكبر من فوهة خروجها، كانت المياه تعجّ عند تدفّقها، الأمر الذي اعتبره اليهود بمثابة معجزة، وربطوه بملاك ينزل من السماء ليُحرّك الماء. لأجل ذلك، جاءت معجزة يسوع مزدوجة المعنى: فقد أراد أن يدلّ على قدرته من جهة، وأن يُفهم اليهود أن تحرّك المياه وتحوّل لونها لا يمتّ إلى المعجزات بصلة.

أضف إلى ذلك أنّ يسوع قد استخدم تسميات أطلقها على نفسه، وكانت، في الواقع، أسماء أمكنة موجودة ومعروفة. فإلى غرب بركة بيت حسد مكان يُدخل إليه بباب وفيه يتمّ ذبح الأضحية التي ستُقدّم إلى الهيكل وقد عُرف باسم "باب الغنم" أو "باب الخراف". وأطلقه يسوع على نفسه "**أنا هو باب الخراف**"(١٩٥)، ولكنّه أضاف تأنيبًا لرؤساء اليهود عندما اعتبر أنّ جميع الذين أتوا قبله كان لصوصًا، وأنّ الخراف لم تسمع لهم.

ثانيًا: محاكمة يسوع وصلبه

يمكننا تلخيص علاقة بيلاطس بمحاكمة يسوع، في الآتي:

١- حَكَم السنهدريم اليهودي على يسوع "**إنّه يستوجب الموت**"(١٩٦).

٢- "**وفي الصباح تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كلّه، فأوثقوا يسوع ومضوا به وأسلموه إلى بيلاطس**"(١٩٧).

٣- "**فخرج بيلاطس إلى اليهود وقال: أيّة شكاية تقدّمون على هذا الرجل؟**"(١٩٨).

٤- "**فقال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واحكموا عليه بحسب ناموسكم. فقال اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدًا**"(١٩٩).

٥- "**سأله بيلاطس: أنت ملك اليهود؟ فأجاب وقال له أنت تقول**"(٢٠٠).

---

(١٩٥) يوحنّا ٩: ٧.

(١٩٦) مرقس ١٤: ٦٤.

(١٩٧) مرقس ١٥: ١.

(١٩٨) يوحنّا ١٨: ٢٩.

(١٩٩) يوحنّا ١٨: ٣١.

(٢٠٠) مرقس ١٥: ٢.

"ثمّ دخل بيلاطس أيضًا إلى دار الولاية ودعا يسوع، وقال له: أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع: أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنّي؟ أجابه بيلاطس ألعلّي أنا يهوديّ؟ إنّ أمّتك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ. فماذا فعلت؟ أجاب يسوع إنّ مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أُسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا. فقال له بيلاطس: أفأنت إذًا ملك؟ أجاب يسوع أنت تقول إنّي ملك"(٢٠١).

٦- **"وحين علم بيلاطس أنّه من سلطنة هيرودس أرسله إلى هيرودس"**(٢٠٢) . **"فاحتقره هيرودس مع عسكره، واستهزأ به وألبسه لباسًا لامعًا، وردّه إلى بيلاطس. فصار بيلاطس وهيرودس صديقَين مع بعضهما في ذلك اليوم، لأنّهما كانا من قبل في عداوة بينهما"**(٢٠٣).

٧- أرسلت امرأة بيلاطس إليه رسالة تحذير: **"وإذ كان (بيلاطس) جالسًا على كرسيّ الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك الصدّيق، لأنّي تألّمت اليوم كثيرًا في الحلم من أجله"**(٢٠٤).

٨- اقترح بيلاطس عليهم أن يطلق لهم يسوع، ولكنّ الجموع صرخت طالبة إطلاق بارأباس. **"فقال بيلاطس لليهود: أنا لست أجد فيه علّة واحدة، ولكم عادة أن أطلق لكم واحدًا في الفصح. أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ فصرخوا أيضًا جمعيهم قائلين ليس هذا، بل بارأباس"**(٢٠٥).

٩- غسل بيلاطس يديه أمام الجميع لإخلاء نفسه من المسؤوليّة: **"أخذ ماء وغسل يديه قدّام الجميع قائلاً: إنّي بريء من دم هذا الصدّيق، أبصروا أنتم"**(٢٠٦).

١٠- **"فحينئذ أخذ بيلاطس يسوع وجلده"**(٢٠٧).

١١- وشهد بيلاطس مرّة أخرى على براءة يسوع: **"فخرج بيلاطس أيضًا خارجًا وقال لهم: ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أنّي لست أجد فيه علّة واحدة"**(٢٠٨).

١٢ - فقال لهم بيلاطس: **"هو ذا الرجل"**(٢٠٩) .

---

(٢٠١) يوحنّا ١٨: ٣٣ – ٣٧.
(٢٠٢) لوقا ٢٣: ٧.
(٢٠٣) لوقا ١١ و١٢.
(٢٠٤) متّى ٢٧: ١٩.
(٢٠٥) يوحنّا ١٨: ٤٠، مرقس ١٥: ٩ -١١.
(٢٠٦) متّى ٢٧: ٢٤.
(٢٠٧) يوحنّا ١٩: ١.
(٢٠٨) يوحنّا ١٩: ٤.
(٢٠٩) يوحنّا ١٩: ٥.

١٣- شهادته للمرّة الثالثة ببراءة يسوع: "**فلمّا رآه رؤساء الكهنة والخدّام صرخوا قائلين: اصلبه، اصلبه. قال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واصلبوه لأنّي لست أجد فيه علّة**"(٢١٠).

١٤- "**فقال له بيلاطس: أَمَا تكلّمني؟ ألا تعلم بأنّ لي سلطانًا أن أصلبك وسلطانًا أن أطلقك؟ أجاب يسوع: لم يكن لك عليّ من سلطان لو لم يُعطى لك من فوق. لذلك فالذي أسلمني إليك له خطيئة أعظم**"(٢١١).

١٥- "**من ذلك الوقت كان بيلاطس يطلب أن يُطلقه، ولكنّ اليهود كانوا يصرخون قائلين: إن أطلقت هذا فلست محبًّا لقيصر. كلّ من يجعل نفسه ملكًا يقاوم قيصر**"(٢١٢).

١٦- أحضر بيلاطس يسوع أمام الشعب وقال لليهود: "**هوذا ملككم**"(٢١٣).

١٧- استنكر اليهود أن يكون لهم ملك إلاّ قيصر، وكرّروا طلبهم بصلب يسوع: "**فصرخوا خذه، خذه اصلبه. قال لهم بيلاطس: أأصلب ملككم؟ أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلاّ قيصر**"(٢١٤).

١٨- فحكم بيلاطس على يسوع بالصلب: "**فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلب**"(٢١٥).

١٩- "**وكتب بيلاطس عنوانًا ووضعه على الصليب. وكان مكتوبًا: يسوع الناصري ملك اليهود**"(٢١٦).

٢٠- رفض بيلاطس أن يجيب إلى طلب اليهود بتغيير عنوان الصليب قائلاً لهم: "**ما كتبت قد كتبت**"(٢١٧).

٢١- سأل يوسف الذي من الرامة "**أن يأخذ جسد يسوع فأذن له بيلاطس، فجاء وأخذ جسد يسوع**"(٢١٨).

٢٢- استجاب بيلاطس لطلب اليهود أن يضبطوا القبر بحرّاس وأختام: "**وفي الغد الذي بعد التهيئة اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيّون إلى بيلاطس، قائلين: يا سيّد قد تذكّرنا أنّ ذلك المضلّ قال وهو حيّ: إنّي بعد ثلاثة أيام أقوم. فمُرْ بضبط القبر إلى اليوم الثالث، لئلاّ يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب إنّه قام من بين الأموات. فتكون الضلالة الأخيرة أشرّ من الأولى. فقال لهم بيلاطس: عندكم حرّاس، اذهبوا واضبطوه كما تعلمون، فمضوا وضبطوا القبر بالحرّاس وختموا الحجر**"(٢١٩).

---

(٢١٠) يوحنّا ١٩: ٦.

(٢١١) يوحنّا ١٩: ١٠ و١١.

(٢١٢) يوحنّا ١٩: ١٢.

(٢١٣) يوحنّا ١٩: ١٦.

(٢١٤) يوحنّا ١٩: ١٥.

(٢١٥) يوحنّا ١٩: ١٦.

(٢١٦) يوحنّا ١٩: ١٩.

(٢١٧) يوحنّا ١٩: ٢١ و٢٢.

(٢١٨) يوحنّا ١٩: ٣٨.

(٢١٩) متّى ٢٧: ٦٢-٦٦.

أين تمّ الحكم على يسوع، وأين صُلب؟

أفضت دراسة علماء الآثار إلى اكتشاف موقعَين مهمّين: الأوّل، قصر الحاكم المرتفع الذي يُطلّ على المدينة، وقد سبق التنويه إليه، والثاني قصر قديم لهيرودس الكبير تحوّل لاحقًا إلى مكان لإقامة بيلاطس، وكان يقع إلى الجنوب الغربيّ من الهيكل.

أمّا جبل الزيتون فكان مطلاً على قصر بيلاطس، وقد حاول اليهود مرّات عدّة مراقبته من هذا الجبل، وإلقاء مقذوفات ناريّة لحرقه وقتل مَن فيه. فماذا يمكن أن نتوقّع من الرومان عندما يصل إلى مسامعهم أنّ جماعة قد اجتمعت ليلاً في الجبل؟ لا شكّ بأنّ سببًا خفيًّا دفع مثل هذه الجماعة للاجتماع. هكذا نجد أنّ سببًا إضافيًّا، غير خيانة يهوذا، دفع الجند لتطويق هذه الجماعة التي أثارت الشبهات.

وبما أنّ التهمة في مثل هذه الحالة هي التآمر على الدولة، وبالتالي الخيانة العظمى، فهي تحتاج إلى شاهد، بل شهود. وفي الأناجيل يظهر دور يهوذا كشاهد على خيانة يسوع.

وسرعان ما تحوّلت المواجهة إلى مسلّحة، ولو بأبسط الأشكال، الأمر الذي لا يمكن السكوت عنه. فإذا كانت هذه الجماعة بريئة من الشبهات، لماذا ردّة فعلها هذا؟ هنا نجد يسوع يتدخّل لإبعاد الشبهات عن هذا الاجتماع.

وتفتح علينا قصّة توقيف يسوع وردّة فعل بطرس وغيره من الرسل الباب للتأمّل في النصوص الإنجيليّة.

مَن هو بطرس الأناجيل؟ بل مَن هم بعض تلاميذ يسوع في الأناجيل؟

لا نجد في الأناجيل إلحاحًا على تسمية أيّ من الرسل باسم أبيه بقدر ما نجده مع بطرس. فهو الذي أجاب على يسوع: مَن يقول الناس إنّ ابن الإنسان هو؟ وجاء جواب يسوع: "**طوبى لك يا سمعان بن يونا**"[(٢٢٠)]، وفي يوحنّا "**أنت سمعان بن يونا، وستُدعى صخرًا**"[(٢٢١)]، وأيضًا "**يا سمعان بن يونا أتُحبّني...**"[(٢٢٢)]، وقد ربطت الترجمات اسمه ربطًا مباشرًا بالآرميّة "بار" أي ابن، وأصبح ابن يونا أو ابن يوحنّا. ولم يُعرف عن أندراوس شقيقه أنّه ابن يونا، ولم يُلقّبه يسوع بهذا اللقب.

في الواقع، الموضوع مختلف بعض الشيء، فبطرس وحده بين الرسل قد حصل على لقب عبريّ صرف غير آراميّ وهو "باريونا" الذي يعني المشاكس أو المقاتل. وتُثبت هذه النظريّة علاقة يسوع به والحوارات التي دارت بينهما، وتأنيب يسوع له أكثر من مرّة. لذلك نفهم أنّ لقبه ينسجم أكثر مع شخصيّته.

(٢٢٠) متّى ١٦: ١٧.

(٢٢١) يوحنّا ١: ٤٢.

(٢٢٢) يوحنّا ٢١: ١٥.

ينطبق الأمر على تدّاوس الذي يعني بالعبرانيّة "الشجاع"، وعلى توما الذي يعني "توأم"، وعلى يعقوب ويوحنّا ابني "الرعد". فنكتشف أنّ الأناجيل لم تنقل إلينا الأسماء الحقيقيّة لجميع الرسل، إنّما نقلت ألقابًا شاعت على بعضهم.

لأجل ذلك، لم يكن يسوع وحده في جبل الزيتون ليُثير الشبهات، إنّما بعض رسله الذين سبقت سمعتهم أن عرّفت عنهم كما حدث مع بطرس عندما كان يصطلي.

تزامنت جميع هذه الأحداث مع خشية الرومان من ثورة لليهود موشكة. وكان من الطبيعيّ جدًّا أن يهرب التلاميذ، فالتهمة متعلّقة بخيانة الدولة وعقابها شديد ولا مفرّ منه.

أمّا أن يُساق يسوع إلى الاستجواب مع بزوغ الفجر، فهذا يدلّ على حالة النفير العام التي كانت قائمة منذ فترة غير قصيرة.

هنا بالتحديد بدت اللعبة التي مارسها رؤساء اليهود خبيثة! فالرومان كانوا يُعدّون العدّة لقمع اليهود الذين تُشير جميع المعلومات التي جمعوها عنهم بأنّهم يستعدّون لانتفاضة!

فليدفع الثمن واحد! ولتُصرف أنظار الرومان عمّا كان يُحضّر في الخفاء! ولكنّ رؤساء الكهنة كانوا في حالة من الحرج غريبة ومريبة، فإذا كان يسوع خائنًا للدولة، لماذا هاجوا كلّ هذا الهياج عليه؟ تعرف المخابرات الرومانيّة إذا كان خائنًا أم لا، وتجلبه هي للمحاكمة التي هي من اختصاص الوالي الروماني. وإذا كان مارقًا على دين اليهود، فلا شأن لبيلاطس في محاكمته!

نتخيّل، إذًا، تلعثم رؤساء الكهنة. ونتخيّل كم أرهقوا مسامع بيلاطس، لدرجة اكتشف معها أنّ المقدّم للمحاكمة، بغضّ النظر عن براءته أو إدانته، إنّما هو كبش محرقة في غير مكانها.

ألم يُفكّر بيلاطس، ولو لبرهة، بأتباع يسوع؟ ألم يخف من انتفاضة يقوم بها أتباعه؟ يبدو أنّ الحوار الذي دار بينهما كشف افتقار هذا الرجل إلى أيّ نوع من العنف.

وربّما قاد رؤساء الكهنة غباؤهم إلى تقديم فكرة سديدة للرومان عندما اتّهموا يسوع بأنّه قال "**انقضوا هذا الهيكل وأنا أبنيه في ثلاثة أيام**"(٢٢٣). فالتهمة التي ألصقوها به سيلمع ومضيها في عقول الرومان، وسيفهمون مغزاها: لا يمكن التخلّص من اليهود وإلى الأبد إلاّ إذا هدمنا هيكلهم. وهذا ما فعلوه لاحقًا.

ولكنّ يسوع فعليًّا قُدّم مرّتَين للمحاكمة، الأولى أمام عظيم الأحبار "**وذهبوا بيسوع إلى عظيم الأحبار، فاجتمع الأحبار والشيوخ والكهنة كلّهم...**"(٢٢٤). وأمام الأحبار وُجّهت تهمتان إلى يسوع، الأولى، قوله عن خراب الهيكل، ولكنّها لم تنفع، والثانية، وهي تحوّل في الاستجواب وهي

(٢٢٣) يوحنّا ٢: ١٩.

(٢٢٤) مرقس ١٤: ٥٣.

"**أأنت المسيح ابن الله الحيّ**"(٢٢٥). وحكم الأحبار على يسوع بتهمة التجديف. وعقابها الموت رجمًا بالحجارة. غير أنّ الرومانيّين كانوا قد منعوا اليهود من تنفيذ أحكام بالإعدام.

وكان الأحبار يعرفون تمام المعرفة جميع التجاديف التي يمكن تخيّلها ضدّ إلههم لن تُحرّك مشاعر الوالي، بل ربّما تجعله يبتهج في قرارة نفسه. وجاء ادعاء الأحبار أنّه أعلن نفسه ملكًا، وعدم نفي يسوع للاتهام، ليلفت انتباه الوالي. لا يمكننا تخيّل ما فكّر به بيلاطس في تلك اللحظة! وهو الذي طالما أبغض اليهود وحقد عليهم.

والغريب في الأمر قصّة العفو الذي كان الرومان يمنحوه لليهود بمناسبة فصحهم. فالقوانين الرومانيّة لم تنصّ على عفو كهذا لا من قريب ولا من بعيد، ومن المؤكّد أنّ بيلاطس لم يمارس مثل هذا العفو الذي وصفه متّى "**وكان للوالي عادة أن يُطلق لهم في العيد أسيرًا مَن أرادوا**"(٢٢٦)، فلا وجود لذكره في رسالته إلى سينيكا، وربّما لم يمارسه أسلافه منذ وقت طويل! وبالتالي لم يتحوّل مع مرور الزمن والتكرار إلى شبه قانون ملزم. والأرجح أنّ الأمر مرتبط بوضع اسم مبتكر للدلالة على أنّ الشعب الهائج والمطالب بصلب يسوع، لم يكن مجمعًا على المطالبة بالصلب كما نجده في الأناجيل، إنّما قد انقسم إلى فريقَين: الأوّل يُطالب بصلب يسوع، والثاني، يُطالب بإطلاق يسوع. وهنا تمّ استعمال الآراميّة من قِبَل الإنجيليّين على لسان الشعب "**أطلق لنا برأبّاس**"(٢٢٧) أو "أطلق لنا بارأبّا"، ومعناها "أطلق لنا ابن الآب" وهو اللقب الذي نوّه عليه يسوع عدّة مرّات معتبرًا الإله الذي في السماوات أبيه: "**أبي الذي في السماوات**".

وإذا فكّرنا في الحوار الذي دار بين بيلاطس ويسوع والأسلوب الذي مارسه بيلاطس معه، تسقط نظريّة المحاكمة بأكملها، بمعنى أنّ بيلاطس دفع يسوع ليكون فريسة لغرائز الجنود الحاقدين على اليهود ليفعلوا به ما يُفجّر أحقادهم الدفينة. ألم يتخيّل، إذًا، ماذا يمكن أن يحصل إذا هو تساهل في أمر كهذا؟

وحده المؤرّخ الرومانيّ تاشيتوس يؤكّد قصّة الأناجيل بأنّ بيلاطس هو الذي حكم على يسوع بالموت "**المسيح الذي على عهد تيباريوس أُعدم بأمر من بيلاطس الوالي**"(٢٢٨)، فرسالة بيلاطس إلى صديقه سينيكا لا تتكلّم عن نهاية يسوع لأنّه أرسلها في بداية تبشير يسوع.

أمّا الجلد قبل تنفيذ الحكم فكان من عادة الرومانيّين، ولكنّ ما مارسه الجنود مع يسوع قد تخطّى فعلاً الحدود المعقولة، وكأنّي بهم كانوا يُريدون تحويل فصح اليهود إلى مناحة لا تنتهي.

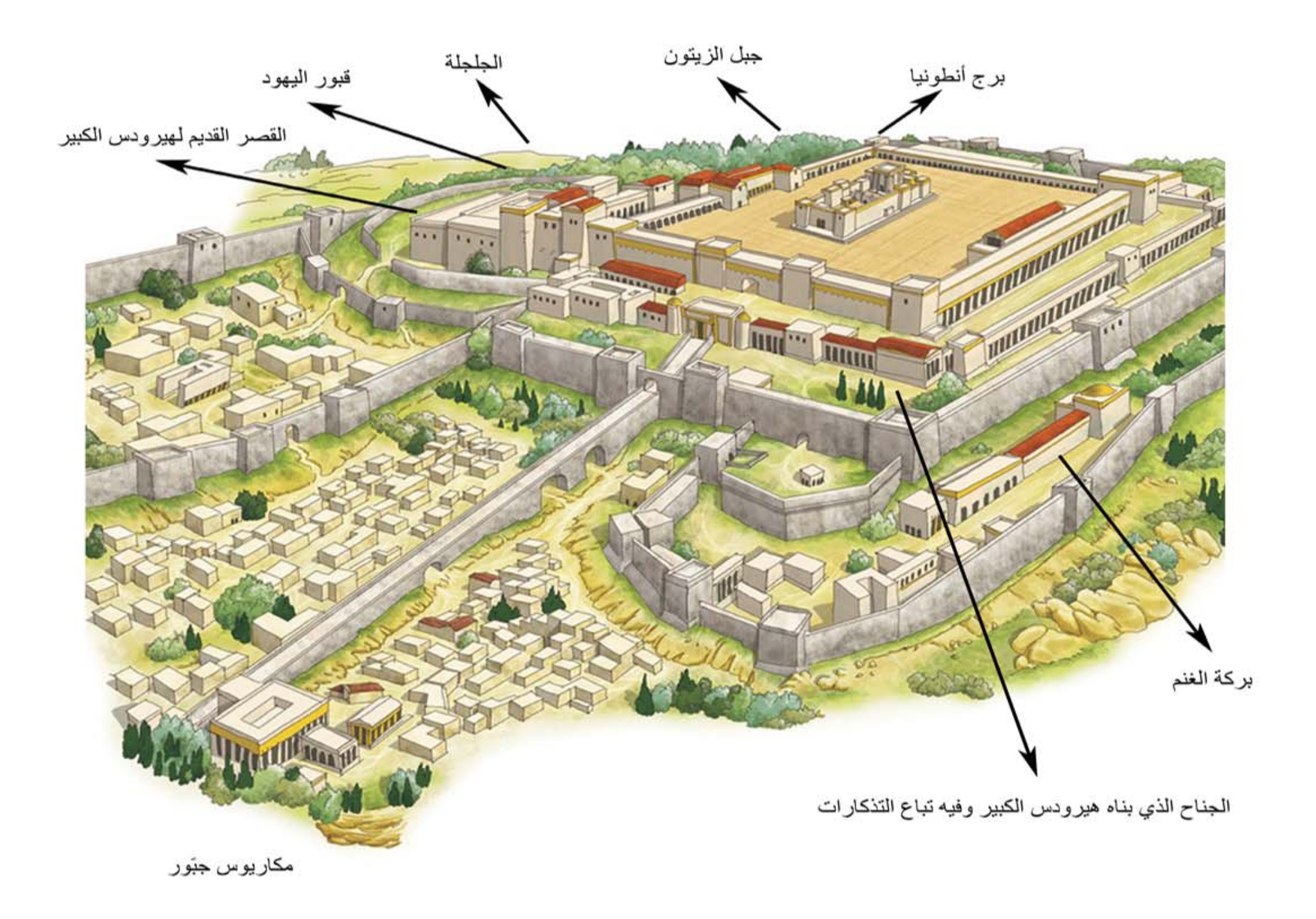
---

(٢٢٥) مرقس ١٤: ٦٢.

(٢٢٦) متّى ٢٧: ١٥.

(٢٢٧) لوقا ٢٣: ١٨.

(٢٢٨) "Auctor nominis eius Christus Tiberio imperitante per procuratorem Pontium Pilatum supplicio adfectus erat". Tacito, Annali, XV, 43-44



امّا الصلب فلم يكن من عادة الرومانيّين، ولكنّهم اخذوا هذه العادة عن الفرس الذي سبق أن بدأوا بممارستها منذ القرن السادس قبل الميلاد. ومارس الرومانيّون الصلب لفترة طويلة من بعد صلب المسيح، وأعدموا جميع مَن كانوا يُتّهمون بالخيانة أو التمرّد. وعلى خلاف ما جاءت به الإنجيليّون يكون اللصّان اللذان صُلبا معه متّهمان بدورهما بالتمرّد والعصيان.

هذا ما استطعت جمعه عند محاكمة يسوع.

الفصل العاشر
تحديد مكان الصلب

أوّلاً: أين صُلب يسوع؟

"ولمّا بلغوا إلى مكان يُسمّى الجلجلة الذي هو موضع الجمجمة"(٢٢٩).

"ولمّا بلغوا المكان المُسمّى الجمجمة صلبوه هناك هو والمجرمَين أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار"(٢٣٠).

"فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع المسمّى الجمجمة وبالعبرانيّة يُسمّى الجلجلة"(٢٣١).

اعتقد كثيرون أنّ هذا المكان جبليّ هو، ولكنّه في الواقع ليس بجبل البتّة، بل هو مجرّد مرتفع صغير أقلّ من الهضبة حتّى. ولذلك سمّاه الإنجيليّون "المكان"، ولم يُسمّوه "الجبل".

أين كان؟ كان خارج مدينة أورشليم.

ذكر المؤرّخ اليهوديّ يوسفيوس، في كتابه "الحرب اليهوديّة": **"بُني لمدينة أورشليم ثلاثة أسوار. الأوّل قديم يُحيط برابية موريا حيث بُني الهيكل ويحيط جبل صهيون. والثاني يحيط بمنطقة عقرة وهي شمالي صهيون وغربي موريا. وخارج هذا السورالثاني يقع المكان المُسمّى الجلجلة. أمّا الثالث فقد بدأ بناؤه في عهد هيرودس أغريبّا (٣٧-٤٤)، ثمّ أوقفهم الإمبراطور كلوديوس عن متابعة بنائه. ولم يتمّمه اليهود إلاّ سنة سبعين"**(٢٣٢) أي بعد صلب يسوع.

ولقد أثبت العلم أنّ خارج منطقة السور الثاني كانت قبور اليهود، ومن بينها قبر يوسف الراميّ المذكور في الإنجيل. ومعظم هذه القبور محفورة في صخر.

لقد كان مكان الصليب قريبًا من القبر، على حدّ ما أثبت العلم.

١- قبر يسوع في الدائرة.

٢- الكنيسة الباسيليك التي بناها قسطنطين الكبير سنة ٣٣٥.

٣- مكان الجمجمة.

٤- مغارة اكتشاف الصليب.

٥- القبور المنسوبة إلى يوسف الراميّ.

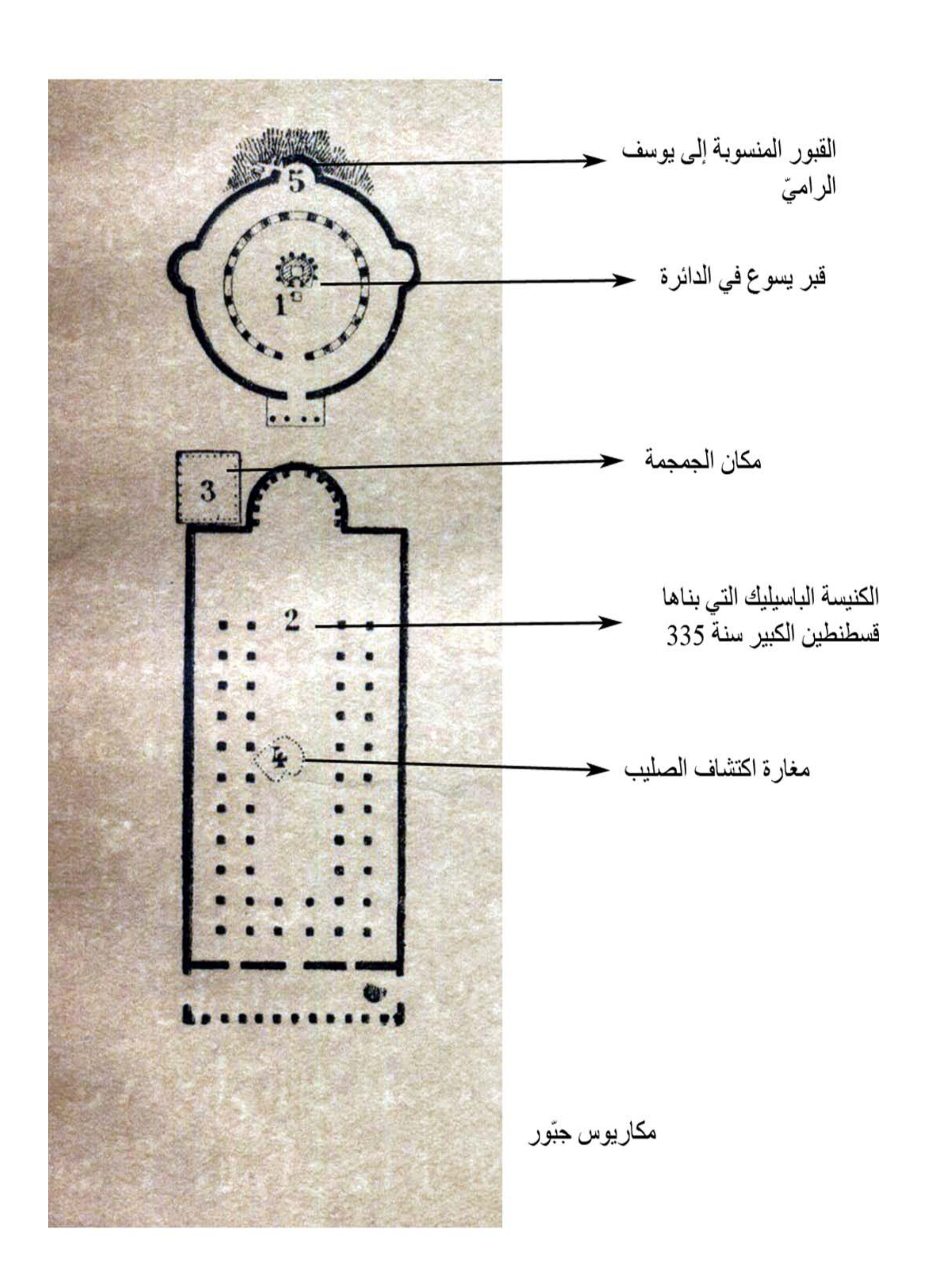
---

(٢٢٩) متّى ٢٧: ٣٣.

(٢٣٠) لوقا ٢٣: ٣٣.

(٢٣١) يوحنّا ١٩: ١٧.

(٢٣٢) Flavio Giuseppe, **Antichità Giudaiche**, Libro V: 4.


5
1
3
2
4
القبور المنسوبة إلى يوسف الراميّ
قبر يسوع في الدائرة
مكان الجمجمة
الكنيسة الباسيليك التي بناها قسطنطين الكبير سنة 335
مغارة اكتشاف الصليب
مكاريوس جبّور

لماذا سُمّي "مكان الجمجمة"؟

اختلفت الآراء حول هذا الأمر. ووحدهم آباء الكنيسة مَن حاول الإجابة:

أوريجانوس: لأنّ جمجمة أبينا آدم موجودة فيه.

القدّيس كيرلّس الأورشليميّ: لأنّ المكان مستدير يشبه شكل الجمجمة.

القدّيس إيرونيموس: بسبب وجود جماجم الموتى الذين قتلهم الرومان.

ولم ينسَ المسيحيّون قبر يسوع، فقد بقي القبر ملكًا ليوسف الراميّ، وظلّ أساقفة أورشليم، حتّى سنة ١١٠، من أنسباء يسوع.

١- يعقوب المعروف بأخي الربّ استشهد سنة ٦٢.

٢- خلفه سمعان ابن كلاوبًا حتّى سنة ١١٠. في عهده، وتحديدًا، سنة ٧٠، هُدمت مدينة أورشليم، ولم يُهدم خارجها.

٣- يذكر أوسابيوس المؤرّخ في كتابه تاريخ الكنيسة أسماء أربعة عشر أسقفًا خلفوا يعقوب، وجميعهم من أهل الختان، وبالتالي كانوا جميعًا يعرفون مكان الصلب والقبر(٢٣٣).

٤- كان مكاريوس آخر أسقف على أورشليم على عهد تنصّر الإمبراطور قسطنطين.

ماذا حدث سنة ١٣٥؟

رغبة منه بمحو جميع آثار المسيح والمسيحيّة، أمر الإمبراطور أدريانوس، سنة ١٣٥، على حسب ما شهد عنه القدّيس إيرونيموس في رسالته إلى تلميذته بولينا (رسالة ١٧: ٣): "**بردم مكان الجمجمة. بلّط مكان الردم. بنى فوق المكان وفوق القبر هيكلَين وثنيّين واحد على اسم المشتري والثاني على اسم الزهرة، ووضع تمثاليهما فوقه. حوّل الأرض المجاورة إلى بستان**".

كان من الطبيعيّ ألاّ ينسى المسيحيّون مكان صلب يسوع ومكان قبره، وقد حدّد أدريانوس الإمبراطور مكانهما بهيكلَين. فلا مجال من ثمّ لأن يضيعا.

وقد ذكر أوريجانوس (في القرن الثالث) أنّ زوّارًا كثيرين من المسيحيّين كانوا يأتون لزيارة هذا المكان والصلاة فيها والتبرّك منه.

بناء كنيسة القيامة

بقي الحال على ما كان عليه حتّى إعطاء الإمبراطور قسطنطين الحريّة الدينيّة سنة ٣١٢.

---

(٢٣٣) يوسابيوس القيصري، **تاريخ الكنيسة**، الكتاب الرابع، الفصل الخامس، أساقفة أورشيلم من عصر مخلّصنا إلى العصر موضوع تأمّلنا، مكتبة المحبّة، مصر، صفحة ١٥٢. ترجمة القمّص مرقس داود.

سنة ٣٢٦، ذهبت هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين إلى أورشليم لتزور الأماكن المقدّسة. وعندما رأت هياكل الأوثان مكان القبر والصلب، أمرت الجنود الرومانيّين بهدم الهيكلَين.

كانت من عادة الرومان أن يدفنوا أدوات التعذيب بالقرب من جثث قتلاهم. وهذا ما حصل مع يسوع. فقد تعاونت هيلانة مع أسقف أورشليم مكاريوس ووجدت مكان الصليب، بل الصلبان الثلاثة.

أمر الإمبراطور قسطنطين الأسقف مكاريوس ببناء كنيسة فخمة تليق بالمكان، وهكذا صار، فبُنيت ثلاث كنائس:

واحدة فوق القبر.

واحدة فوق مكان الصلب.

واحدة فوق المكان الذي وُجدت فيه الصليب وآلات الصلب.

هدم كنيسة القيامة

في الرابع من شهر أيار سنة ٦١٤، احتلّ كسرى الثاني ملك الفرس أورشليم، وأحرق نحو ثلاثمائة كنيسة ومكان عبادة، بما فيها كنيسة القيامة. وقتل حوالي تسعين ألف مسيحي. وسرق الصليب.

بعد الانتصار على الفرس سنة ٦١٩، أعاد بناء الكنيسة مودستوس رئيس دير القدّيس ثاوذسيوس.

لم تمضِ سنوات قليلة حتّى استولى العرب (الخليفة عمر بن الخطّاب) على أورشليم سنة ٦٣٨، على عهد البطريرك صفرونيوس. ولكنّه لم يلمس بأذى كنيسة القيامة، بل باشر ببناء الجامع الأقصى.

وسنة ٩٦٦ عاد العرب وأحرقوا كنيسة القيامة.

سنة ١٠٠٩ عاد الملك الفاطميّ الحاكم بأمر الله وهدم كنيسة القيامة.

وأتت الحروب الصليبيّة.

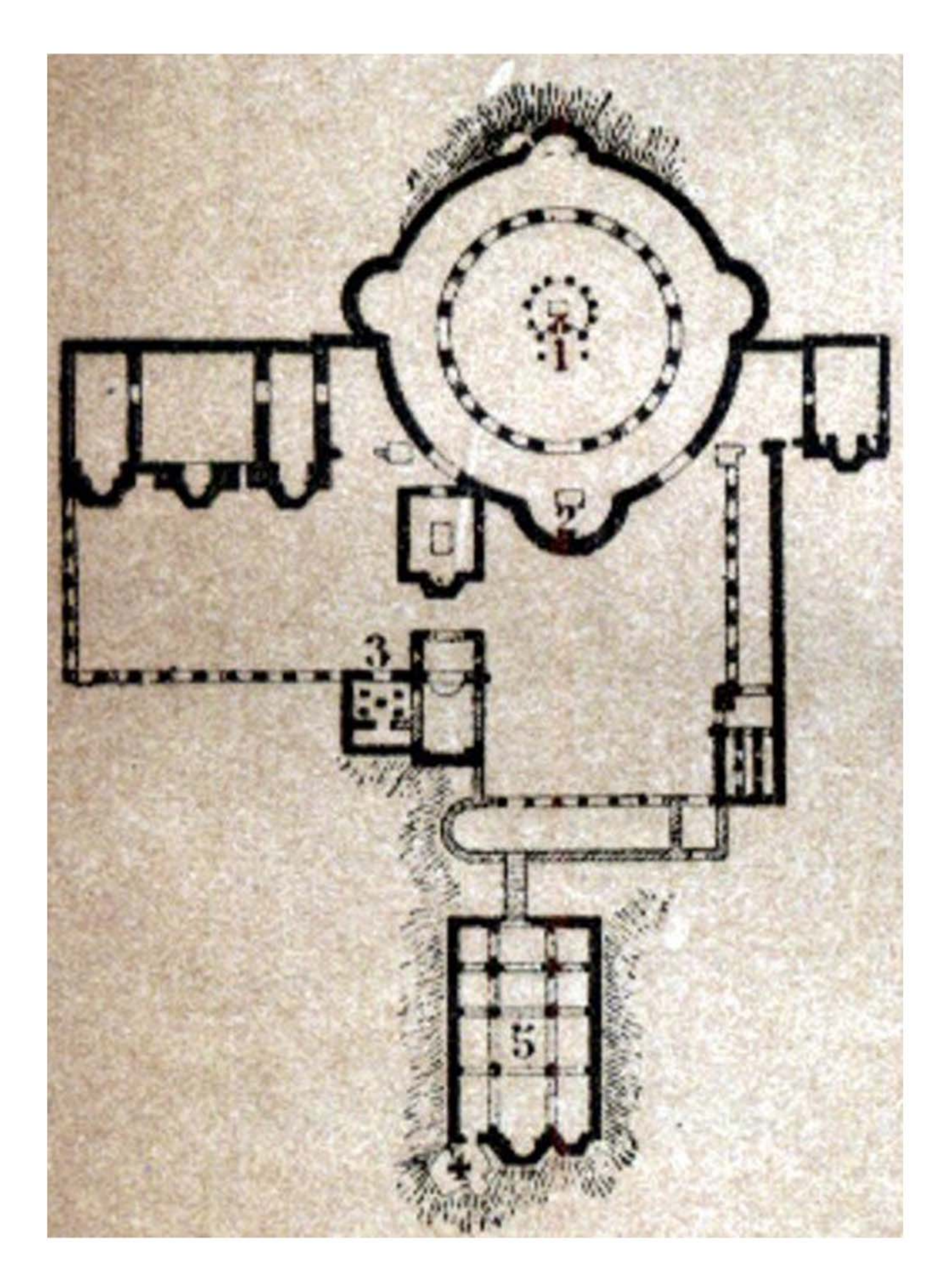
وسنة ١١٣٠ أعاد الصليبيّون بناء كنيسة القيامة.

سنة ١١٨٧ أمر صلاح الدين الأيوبيّ بنـزع الصليب عن واجهة الكنيسة وبتحطيم الأجراس.

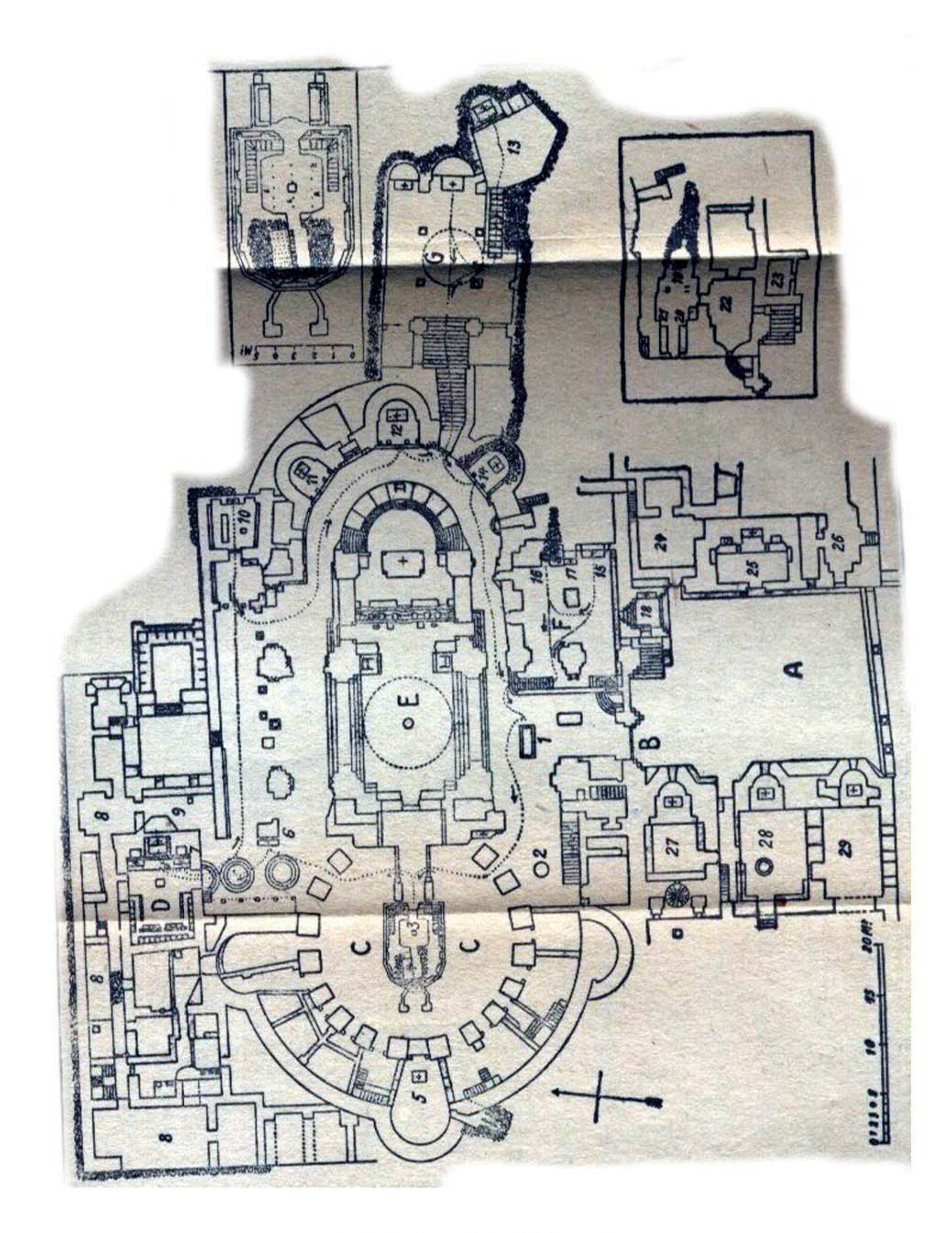
سنة ١٢٣٠ دخل الرهبان الفرنسيّسكانيّون ولا يزالون.

سنة ١٢٤٤ غزاها الخوارزميّون ونهبواها وقتلوا الكهنة فيها.

رمّمت الكنيسة مرارًا بسبب الهزّات الأرضيّة والتصدّع الذي أصابها عبر التاريخ: سنة ١٥٠٠، ثمّ سنة ١٧١٩، ثمّ سنة ١٨٠٨، ثمّ سنة ١٨٦٩.



سنة ١١٣٠ أعاد الصليبيّون بناء كنيسة القيامة



كنيسة القيامة سنة ١٨٦٩

بعض المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها

Bloch Gustave, **L'empire romain évolution et décadence**, Paris, 1922.

Doumergue Christian, **Claudia Procula femme de Ponce Pilate**, Les Cahiers de Terre de Rhedae, N° 2, Mai, Rennes-le-Château, 2008.

Dictionnaire des Apocryphes, Collection de tous les Livres Apocryphes relatifs à l'Ancien et au Nouveau Testament, 2 tomes, J.-P. Migne, éditeur, Paris, 1856-1858. Publiée par l'Abbé Migne.

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques, 31 Volumes, Paris, Letouzey et Ané, Paris, 1912-2015. Publié sous la direction de Mgr Alfred Baudrillart et autres, avec le concours d'un grand nombre de collaborateurs.

Les Evangiles Apocryphes, Franck, Libraire-éditeur, Paris 1848. Traduit et annotés d'après l'édition de J. C. Thilo par Gustave Brubet.

Leon-Dufour Xiavier, Duplacy Jean, Grelot Augustin George Pierre, Guillet Jacques et Lacan Marc-François, **Dizionario di Teologia Biblica**, Edizione italiana completamente rifusa sulla II edizione francese riveduta e ampliata, a cura di Giovanni Viola e Ambretta Milanoli, 1979.

الأناجيل، النصوص الكاملة، النصوص اليهوديّة المسيحيّة المقدّسة، الطبعة الأولى، دار قتيبة، دمشق، 2008. ترجمة وتحقيق أ. د. سهيل زكّار.

إنجيل توما، سلسلة الأناجيل المرفوضة من النصارى سنة 498 (2)، مكتبة الإيمان، المنصورة. الدكتور أحمد حجازي السقّا.

سفينسيسكايا إ. س.، **المسيحيّون الأوائل الإمبراطوريّة الرومانيّة**، خفايا القرون، الطبعة الثانية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٧. ترجمة الدكتور حسّان ميخائيل إسحاق.

طعيمة صابر، **التاريخ اليهودي العام**، الجزء الأوّل، الطبعة الثالثة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

عبّودي هنري س.، **معجم الحضارات الساميّة**، الطبعة الثاني، جرّوس برس، طرابلس-لبنان، ١٩٩١.

أضف إليها: موسوعة الحضارات لأندريه إيمار، وتاريخ سورية ولبنان للمطران يوسف دبس، وتاريخ كنيسة انطاكية العظمى للدكتور أسد رستم. وتاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري، والتنبيه الإشراق للمسعودي، ومعجم الفلاسفة للدكتور جورج طرابيشي، وقاموس الكتاب المقّدس، والفهرس العربي لكلمات العهد الجديد اليونانيّة، ويسوع الناصري، لجوزيف راتسينجر، وغيرها.

العنوان	الصفحة

حلب

الخميس، الحادي عشر من أيار ٢٠١٧

للمؤلّف

١- **السنكسار الأنطاكي للبطريرك مكاريوس الثالث ابن الزعيم (١٦٤٧-١٦٧٢)**، سلسلة التراث الأنطاكي، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية - لبنان، ٢٠١٠. بالاشتراك مع المطران ميشال أبرص.

٢- **رتبة تكريس الشموع يوم عيد دخول الربّ إلى الهيكل**، سلسلة اليوبيل المئوي الثالث للرهبانيّة الباسيليّة الحلبيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠٠٨. بالاشتراك مع الأب روجيه أخرس وغادة كمال خوري.

٣- **أقدم كنيسة رعويّة للروم الكاثوليك في الشرق**، كنيسة القدّيس جاورجيوس - زوق مكايل، المطبعة البولسيّة، ٢٠٠٥.

٤- **الجزء المظلم من وجهك**، سلسلة محبّة بدون حدود، زوق مكايل-لبنان، ٢٠٠٤. مجموعة قصصيّة بالاشتراك مع ميراي صعب.

٥- **قطّان المطران باسيليوس**، لمحات من حياة نيوفيطوس نصر أسقف صيدنايا، طبعة أولى، مطابع جوزيف رعيدي، بيروت، ٢٠٠١. بالاشتراك مع الأرشمندريت بولس نـزها.

٦- **وثائق هامّة في خدمة كنيستنا الأنطاكيّة**، مَن صنع الانفصال سنة ١٧٢٤، منشورات النور، بيروت، ٢٠٠٠. بالاشتراك مع زياد الخوري.

الترجمات

١- ألكسندر **مان**، **يسوع معلّم الناصرة**، منشورات النور، بيروت.

٢- **نخبة مختارة من حكم الأقدمين**، سلسلة حكميّات ٣، طبعة ثانية، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠٠٥.

٣- **خطاب إلى المعلّم أوريجينوس**، منشورات النور، بيروت ١٩٩٩. ترجمه عن الفرنسيّة واليونانيّة بالاشتراك مع ناتاشا يازجي.